



## عناصر الموضوع

18+	مفهوم الاستكبار
131	الاستكبار في الاستعمال القرآني
184	الألفاظ ذات الصلة
120	الكبريا والعظمة لله تعالى
187	أسباب الاستكبار
101	مظاهر الاستكبار
175	نماذج قرآنية من المستكبرين
17+	أساليب القرآن في عرض الاستكبار
170	التخاصم بين المستضعفين والمستكبرين
۱۷۸	عاقبة المستكبرين
١٨٢	علاج القرآن للكبر



#### مفهوم الاستكبار

## أولًا: المعنى اللغوي:

مادة (كبر) تأتي على معانِ متعددة، أهمها:

أنها تدل على خلاف الصغر، والكبر: معظم الأمر، والكبر: العظمة، وكذلك الكبرياء (١)، والكبر والتكبر والاستكبار تتقارب، وأصل ذلك أن يستعمل في الأعيان ثم استعير للمعاني، ومنه ما اعتبر فيه المنزلة والرفعة، نحو: ﴿الْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩].

وأكابر القوم رؤساؤهم، والكبيرة متعارفة في كل ذنب تعظم عقوبته، والجمع كباثر، وأكبرت الشيء: رأيته كبيرًا، والتكبير يقال لذلك، ولتعظيم الله تعالى بقولهم: الله أكبر، ولعبادته واستشعار تعظيمه (٢)، والكبرياء: الملك، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَاتُهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يونس:٧٨] (٢).

## ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

وقال الراغب الأصفهاني: «الكبر: الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره»(٤).

وقيل أيضًا: الحالة التي يكون عليها الإنسان من الترفع والتعالي على الآخرين واحتقارهم، والتمنع عن قبول الحق معاندة وجحودًا وإنكارًا.

وهذا التعريف يشمل الاستكبار الناتج عن تعالي النفس واستصغارها للغير، سواء أكان ذلك حقًا أم باطلًا، وكذلك الحديث عن عدم قبول الحق والخضوع له، وهذا هو مفهوم حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (الكبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس)(٥).

<sup>(</sup>٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩١، عن عبد الله بن مسعود. ومعنى (بطر الحق): دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا، و(غمط الناس): احتقارهم. شرح صحيح مسلم، النووى، ٢/ ٩٠.



<sup>(</sup>١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ١٥٣،١٥٤.

<sup>(</sup>٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٥٤٦-٥٤٦.

<sup>(</sup>٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٥٢٥.

<sup>(</sup>٤) المفردات، ص٥٤٥.

## الاستكبار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (كبر) في القرآن الكريم (١٥٤) مرة، يخص موضوع البحث منها (٧٥) مرة(١).

والصيغ التي وردت هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكَبُرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف: ٧٥]	44	الفعل الماضي
﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣]	١٣	الفعل المضارع
مُستَكْبِرِينَ بِهِ سَلِيمُ التَّهُجُرُونَ اللهِ [المؤمنون: ٦٧]	١٣	اسم الفاعل
وإن في صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرُّ مَّا هُم سِكِلِفِيهِ ﴾ [غافر:٥٦]	۲	المصدر

وجاء الاستكبار في القرآن بمعناه في اللغة وهو: استعظام الإنسان نفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس، واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له (٢٠).

<sup>(</sup>۱) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٠٠١-٢-١٠٠٢. (٢) انظر: تهذيب الأخلاق، الجاحظ، ص ٣٢.

#### الألفاظ ذات الصلة

## ١ الاستنكاف:

#### الاستنكاف لغةً:

نكف عن الشيء نكفًا: امتنع أنفة، وأنكفه: نزهه عما يستنكف منه، واستنكف عن العمل: امتنع مستكبرًا(١).

#### الاستنكاف اصطلاحًا:

«هو الامتناع والانقباض عن الشيء حمية وعزة» (٢).

#### الصلة بين الاستكبار والاستنكاف:

فرق الزجاج بين التكبر والاستنكاف فقال: الاستنكاف تكبر فيه أنفة، وليس في الاستكبار ذلك (٣)، فإذا اقترن التكبر مع الأنفة كان استنكافًا؛ لذا كان الاستنكاف أوسع دلالة وأعلى رتبة من الاستكبار.

قال أبو السعود: «والاستكبار دون الاستنكاف المنبىء عن توهم لحوق العار والنقص من المستنكف عنه»(٤).

#### ٢ العجب:

#### العجب لغة:

العجب بالضم: الزهو والكبر، ورجلٌ معجبٌ: مزهوٌ بما يكون منه حسنًا أو قبيحًا، وقيل: المعجب، الإنسان المعجب بنفسه أو بالشيء، وقد أعجب فلان بنفسه إذا ترفع وتكبر فهو معجب برأيه وبنفسه. والاسم: العجب، وهذه المادة مما تدل عليه كبر واستكبار للشيء (٥٠).

#### العجب اصطلاحًا:

مسرة بحصول أمر، يصحبها تطاول به على من لم يحصل له مثله، بقول أو ما في حكمه، من فعل، أو ترك، أو اعتقاد.

<sup>(</sup>١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص٩٥٣.

<sup>(</sup>٢) كتاب العين، الفراهيدي، ٥/ ٣٨٣.

<sup>(</sup>٣) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٥٦/٥.

<sup>(</sup>٤) إرشاد العقل السليم، ٢٦١/٢.

<sup>(</sup>٥) انظر: مقاييس اللغة ، ابن فارس، ٤/ ٢٤٣، لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٥٨٢.

#### الصلة بين الاستكبار والعجب:

«الفرق بين العجب والكبر: أن العجب بالشيء شدة السرور به حتى لا يعادله شيء عند صاحبه، تقول: هو معجب بفلانة إذا كان شديد السرور بها، وهو معجب بنفسه إذا كان مسرورًا بخصالها، ولهذا يقال: أعجبه، كما يقال: شُرَ به، فليس العجب من الكبر في شيء» (١)، فالعجب ليس هو الكبر، وإنما هو أحد أسبابه الداعية إليه (٢).

#### ٣ الاستعلاء:

#### الاستعلاء لغة:

العين واللام والحرف المعتل أصل واحد يدل على السمو والارتفاع، ومن ذلك: العلاء والعلو، ويقولون: تعالى النهار، أي: ارتفع (٣).

#### الاستعلاء اصطلاحًا:

طلب العلو المذموم، وقد يكون طلب العلا أي الرفعة، وقوله: ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ السَّعَلَى ﴾ [طه: ٢٤]، يحتملهما (٤٠).

#### الصلة بين الاستكبار والاستعلاء:

الاستعلاء يشترك مع الاستكبار في معناه المجازي، ويفترق عنه في معناه الحقيقي، فأصل الكلمة أن تستعمل في الحقيقة على معنى الارتفاع ضد السفل، ثم تجوز بها عن التكبر والاستيلاء على وجه الظلم (٥)، وقد وصف الله تعالى بالاستعلاء بعض خلقه في الحق تارة، وفي الباطل تارة أخرى، ولم يصف أحدًا بالاستكبار على الوجه المحمود.

#### ٤ العتو:

#### العتو لغة:

عتا يعتو عتوًا وعتيًا: استكبر وجاوز الحد. والعتا: العصيان، والعاتي: الجبار، وجمعه عتاةً، والعاتى: الشديد الدخول في الفساد، المتمرد الذي لا يقبل موعظة (٢٠).

<sup>(</sup>١) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٨.

<sup>(</sup>٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ٤٥٦.

<sup>(</sup>٣) انظر: مقاييس اللُّغة، ابن فارس، ٤/١١٢.

<sup>(</sup>٤) انظر: التوقيف، المناوي، ص٩٥.

<sup>(</sup>٥) انظر: روح المعاني، الأُلوسيّ، ١٥/ ٢٥.

<sup>(</sup>٦) لسان العرب، ابن منظور، ١٥ / ٢٧ بتصرف.

#### العتو اصطلاحًا:

العتو: عبارة عن الإباء والعصيان<sup>(۱)</sup>، ومجاوزة الحد فيه بحيث لا يتأثر معه القلب بالموعظة ولا يقبل النصيحة.

قال تعالى حكاية عن بني إسرائيل وقد بلغ العتو فيهم مبلغه: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْدُ قُلْنَا لَمُمّ كُونُوا فِرَدَةً خَسِيْي اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّ

والعتو هنا بمعنى التكبر، أي: «فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه»(٢).

#### الصلة بين الاستكبار والعتو:

الفرق بين العتو والاستكبار واضح في أن العتو أعلى درجات الاستكبار، فإذا تجاوز المستكبر الحد في العصيان والتمرد، بحيث انغلق قلبه عن الموعظة وسماع النصيحة صار عاتيًا.

#### ٥ التواضع:

#### التواضع لغةً:

الوضع ضد الرفع، وضعه يضعه وضعًا وموضوعًا،والضعة: الذل والهوان والدناءة، والتواضع: التذلل وتواضع الرجل: ذل (٣).

التواضع اصطلاحًا:

«تذلل القلوب لعلام الغيوب بالتسليم لمجاري أحكام الحق»(٤).

الصلة بين الاستكبار والتواضع:

التواضع ضد الاستكبار، فالأول محمود، والثاني مذموم.

<sup>(</sup>٤) التوقيف، المناوى، ص٢١٢.



<sup>(</sup>١) مفاتح الغيب، الرازي، ٤/٤٥٤.

<sup>(</sup>٢) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٥٢٦.

<sup>(</sup>٣) انظر: لسان العرب، آبن منظور، ٨/ ٣٩٦.

## الكبريا والعظمة لله تعالى

الكبرياء والعظمة لايكونان إلا لله تعالى وحده لا يشاركه فيهما أحد، فليس للعبد الحق في أحدهما -فضلًا عن كليهما-، إذ هما من خصائص العلى الكبير سبحانه؛ لذا تقررت هذه العقيدة في آيات من كتاب الله تعالى، منها الآية الخاتمة لسورة الجاثية: ﴿ وَلَهُ ٱلْكِنْرِيَّا ۗ فِي ٱلسَّمَنَوَتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَهُو ٱلْمَـزِيرُ ٱلْحَكِيمُ اللهِ الله

بعد أن ذكر سبحانه في مطلع السورة من مظاهر العظمة والكبرياء، وتوعد المستكبرين عن آياته بالعذاب الأليم، وقد تحقق هذا الوعيد قبيل ختام السورة الكريمة فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَفَامَرَ تَكُنَّ ءَايَتِي تُتَلَقَ عَلَيْكُو فَأَسْتَكَكَبَرْتُمُ وَكُفَّمٌ فَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿ ﴾ [الجاثية:٣١].

فكان سبب عذابهم أنهم نازعوا الله تعالى شيئًا من خصائصه وهو الكبرياء، وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه الشهير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل: (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار)(۱).

وصححه الشيخ الألباني.

وقد تأكدت هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ ٱلَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيِّمِنُ ٱلْعَزِيرُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكِيِّرُ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ الحشر: ٢٣].

إنه سبحانه وتعالى ينزه نفسه عن أن يشاركه أحد في كبريائه، فهو المتكبر وحده، وكل من دونه فهو صغير حقير أمام عظمته جل جلاله.

«إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف؛ لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق؛ لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال، فسبحان الله عما يشركون في إثبات صفة المتكبرية للخلق.»(٢).

اقتران اسم الله الكبير بالعلي:

ورد اسم الله (الكبير) في خمسة مواضع من الكتاب العزيز، وجميع هذه المواضع اقترن فيها هذا الاسم بالعلو؛ ففي سورة الرعد قال: ﴿ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ اللهِ الرعد: ٩].

أما ﴿ٱلْعَـٰلِيُۗٱلْكَبِيرُ﴾ فقد وردت في أربع سور هي: الحج، لقمان، سبأ، وغافر،

<sup>(</sup>١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، عن أبي هريرة رضي الله

<sup>(</sup>٢) مفاتح الغيب، الرازي، ٨/ ١٨٣.

وهذه المواضع هي:

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَكَ اللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَالْكَ بِأَكَ اللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَكَ مِنْ دُونِيهِ هُوَ ٱلْبَطِلُ وَأَكَ اللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ اللَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ اللهُ اللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ اللهُ وَأَكَ الْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ اللهُ وَأَلَى اللَّهُ الْعَلِيمُ اللهُ اللَّهِ اللَّهُ اللَّلْمُلِّمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللّه

وقال تعالى: ﴿ ذَالِكَ بِأَنَّ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدَّ عُونَ مِن دُونِهِ ٱلْمَطِلُ وَأَنَّ اللَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْمَطِلُ وَأَنَّ اللَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ (٣٠) ﴿ [لقمان:٣٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا نَنَفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ ۚ إِلَّا لَهُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ ۚ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَقَّ إِذَا فُرْعَ عَن قُلُوبِهِ مِ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمُ مُ قَالُوا ٱلْحَقِّ وَهُو ٱلْعَلِيُّ ٱلْكِيرُ اللهِ السَّالِيَ الْكِيرُ اللهِ السَّالِي السَّالِي اللهِ اللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ ال

وقال تعالى: ﴿ ذَالِكُمْ بِأَنَّهُ: إِذَا دُعِى ٱللَّهُ وَحَدَهُ، كَ فَرْتُكُمُ وَإِن يُشْرَكَ بِهِ مُثَوَّمِنُواً فَٱلْمُكُمُّ لِلَّهِ ٱلْمَلِي ٱلْكِيرِ (اللَّهُ [غافر: ١٢].

وكما هو ملاحظ من الآيات أن جميعها جاءت في سياق الوحدانية والتفرد في المشيئة، وبما يؤكد أن الكبرياء والعظمة والعلو لله وحده لا شريك له، وأن ما دونه فهو مربوب مقهور.

#### أسباب الاستكبار

عند النظر في كتاب الله تعالى نجد أن استكبار العبد يرجع إلى أسباب متعددة، نقف عليها من خلال النقاط الآتية:

## أولًا: الكفر:

«الكفر: تغطية ما حقه الإظهار، والكفران: ستر نعمة المنعم بترك أداء شكرها. وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو النبوة أو الشريعة. والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالًا، والكفر في الدين أكثر»(١).

فالكافر: هو من جاءه الحق من الله تعالى على لسان الرسل أو من ينوب منابهم في مهمة الدعوة إلى الله، فاستكبر عن الخضوع والإذعان له، وتمرد وتعالى عليه، وجحد نعمة الدين، وأبى أن يكون من الموحدين التابعين له.

إن الله تعالى قد وصف قومًا من أهل النار بأنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، وأنهم كانوا من الكافرين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلَنَ قَدْ جَآءَتُكَ ءَايَنِيَ فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكَكَبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَنْفِرِينَ ﴿ ﴿ ﴾ [الزمر: ٩٥].

وذكر تعالى أن عادًا جحدوا آيات الله، وتمادوا في عتوهم وعنادهم، فكان كفرهم

<sup>(</sup>١) التوقيف، للمناوي، ص٦٠٦.

وجحودهم سببًا في استكبارهم بغير الحق، وكان استكبارهم سببًا في عذابهم وهلاكهم. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادُّ فَاسْتَكُبُواْ فِي قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادُّ فَاسْتَكُبُواْ فِي الْمُزْضِ بِفَيْرِ الْحَقِي وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَةً أُولَمْ يَرَواْ أَنْ الشَّدُ مِنَّا قُوَةً أُولَمْ يَرَوا الْكَ اللّهُ اللّذِي عَلَقَهُمْ هُو أَشَدُ مِنْهُمْ قُوةً أُوكَانُوا بِنَاكِلِينَا يَجْحَدُونَ ﴿ اللّهُ مِنْ اللّهُ مِنْ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِيكًا مِنْ اللّهُ مِنْ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ اللّهُ مِنْ اللّهُ اللّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابَ الْخِزِي فِي اللّهِ اللّهُ عَلَيْهِمْ اللّهُ وَهُمْ لَا فِي اللّهُ فَوْ اللّهُ اللّهُ وَلَمْ اللّهُ وَلَمْ اللّهُ وَلَمْ اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَيْ اللّهُ وَلَمْ اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّ

وأخبر تعالى عن قوم نوح عليه السلام، وقد وصل بهم العناد والجحود والكفر إلى درجة بالغة، فكان ذلك الإصرار على الكفر سببًا لبلوغ الكبر عندهم إلى أعلى الدرجات، حتى صور الله حالهم بصورة تبين ذلك بأبلغ تصوير، فقال تعالى: ﴿ وَإِنِّ حَمُلُنَا مُعَوّنُهُمْ لِتَفْغِرُ لَهُمْ جَمَلُوا أَصَيْعُمْ فِي الناجِمُ وَأَصَرُوا وَاسْتَكْبُرُوا الناجَارُ الناجِهِ الناجَار الناجَار الناجَار الناجَار الناجَار الناجَار الناجِهِ الناجَار الناجَار الناجَار الناجَار الناجَار الناجَار الناجَاء الناجَار الناجَار الناجَار الناجَاء الناجَار الناجَاء الناجَار الناجَاء الناجَار الناجَاء الناجُور الناجَاء الناجَ

فالكفر هو أحد الأسباب القوية لحصول الكبر، ومانع من الهداية إلى الإيمان.

### ثانيًا: اتباع الهوى:

«الهوى: ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل: سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»(١).

ولما كان الاستكبار مما تهواه النفس وتميل إليه؛ كان الهوى سببًا له، وسبيلًا إليه، وقد أخبر تعالى أن بني إسرائيل تمردوا على الحق لما جاءهم، وكذبوا رسلهم وقتلوهم، وسبب ذلك هوى النفس الذي ساقهم إلى الاستكبار والتمرد.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِئَابَ
وَقَفَيْتَ نَا مِنْ بَعْدِهِ عِالرُّسُلِّ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ
مَرْيَمُ ٱلْبَيِنَاتِ وَأَيَّدْنَهُ بُرُوجِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلُمَا جَاءَكُمْ
رَسُولُ بِمَا لَا نَهْوَى أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا
كَذَّبَتُمُ وَفَرِيقًا نَقْنُلُونَ ﴿ اللّهِ ﴿ [البقرة: ٨٧].

فهذه الآية الكريمة تكشف عن النفسية اليهودية المتمردة المتكبرة على رسل الله ودعاة الحق، فقد أخبر تعالى أنه أرسل إليهم رسله تترا، مؤيدين بالآيات الباهرات،

ويطلق الهوى ويراد به المحبة، كما يطلق على الشيء المحبوب مبالغة، كما يكنى به عن الباطل والجور والظلم لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور وبين هوى النفس، فإن العدل والإنصاف ثقيل على النفوس فلا تهواه غالبًا، "وهوى النفس يكون في الأمور السهلة عليها، الرائقة عندها، ومعظم الكمالات صعبة على النفس؛ لأنها ترجع إلى تهذيب النفس والارتقاء بها عن حضيض الحيوانية إلى أوج الملكية" (٢).

<sup>(</sup>۲) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ۲۲٤/۲۳.

<sup>(</sup>١) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٧١٧.

والمعجزات البينات، وأيدهم بروح القدس جبريل عليه السلام، كل ذلك من أجل هدايتهم إلى دين الله القويم وصراطه المستقيم، والأخذ بأيديهم من موارد الردى والحرمان إلى نور الهداية والإيمان؛ رحمة بهم، وإشفاقًا عليهم، فبدلًا من أن ينصاعوا لأمر الله، ويستجيبوا لداعي الله، حملتهم الأنفة والكبرياء إلى معاندة كل ما لا يوافق هوى نفوسهم، وقتل كل داع إلى الفضيلة وترك الرذيلة، وهذه النفسية لا تقف عند حد زمني، أو تنقطع عند حد مكاني، وإنما لها صورة مستنسخة عبر العصور وتعاقب الأجيال، لا يكسر كبرياءهم إلا قوة الحق، وقد كسر ومرغت أنوفهم في التراب حتى سمع لأعتاهم قوة عويل.

## ثالثًا: إنكار البعث:

بعث الأجساد بعد فنائها عقيدة لا يماري فيها إلا معاند مكابر جهول، فقد ثبت يقينًا بالأدلة النقلية والعقلية وفي الواقع ما يؤكد البعث والنشور، ويبرهن عليه بأبلغ برهان، وفي القرآن-خاصة المكي منه- بيان شاف لهذه الحقيقة، ومجادلة قوية لمنكريها، فهي إحدى كبريات العقيدة الثلاث التي كان ينكرها المشركون-التوحيد والرسالات والبعث-.

وقد كشف القرآن الكريم عن أن إنكار

البعث سبب من الأسباب التي تؤدي إلى الاستكبار والتعاظم والتمرد على الحق، فقال جل جلاله: ﴿ وَقَالَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلْتَمِكُةُ أَوْ نَرَى رَبَّنّاً لَقَادِ الشَّكَكُمُولُ فِي آَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُواً كَبِيرًا ( ) الفرقان: ٢١].

والمراد بقوله ﴿ اللَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ «يريد: لا يخافون البعث ولقاء الله، أي لا يؤمنون بذلك. » (١) فكان إنكارهم للبعث سببًا في إضفاء صفة الاستكبار عليهم، وإلصاق هذه التهمة بهم، وتميزهم بها عن غيرهم.

#### رابعًا: الحسد:

الحسد مرض من أمراض القلوب المؤدية إلى المهالك؛ ومنه ما هو محمود، وهو ما يسمى (غبطة)، وهو أن يكون لأخيك نعمة لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذا مباح لا إثم فيه.

والآخر مذموم: وهو أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسدًا. فالحسد حده: كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه، وهو محرم (٢).

والمقصود في هذا المبحث من هذين المعنيين هو الثاني؛ لأنه الذي يؤدي إلى

<sup>(</sup>١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٩/١٣.

<sup>(</sup>٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ٢/ ٢٣٨.

قال قتادة: «حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة فقال: أنا ناري وهذا طيني، فكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم»(۱).

وعن جنادة بن أبي أمية قال: أول خطيئة كانت الحسد، حسد إبليس آدم أن يسجد له حين أمر، فحمله الحسد على المعصية (٢).

فالحسد قد تسبب عنه الكبر الذي جعل إبليس يأبى السجود لآدم عليه السلام طاعة لأمر الله، وقبولًا للحق، لذا قال حجة الإسلام الغزالي: «ويدعو الحسد أيضًا إلى

جحد الحق، يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل؛ لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدًا وبغيًا عليه، فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه، ولكنه الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه»(٣)، فالحذر الحذر منه.

## خامسًا: القوة المادية:

القوة المادية من أهم الأسباب التي تدعو إلى التكبر والتمرد على الحق، والتعالي على العباد، واستحقارهم والاستخفاف بهم.

ولعل الناظر في كتاب الله تعالى يجد نماذج متعددة حول هذه القضية، فقد ذكر لنا القرآن من شأن موسى وفرعون ما يؤكد أن القوة المجردة عن إيمان صاحبها تسوقه إلى الكبرياء والتعاظم على الآخرين، واحتقارهم واستصغارهم، والنظر إليهم نظر شزر.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَدُونَ بِكَايَنتِنَا وَسُلْطَننِ شَبِينٍ ﴿ إِلَى فِرْعَوْبَ وَمَلَاثِهِ مِنْ فَأَسْتَكُمْرُوا وَكَانُوا فَكُونُكُما عَالِينَ ﴿ فَا فَقَالُوا أَنْوُمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَنبِدُونَ فَقَالُوا أَنْوُمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَنبِدُونَ ﴿ فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿ فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿ ﴾

<sup>(</sup>٣) إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ٤٣٦.

<sup>(</sup>١) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ١/ ٢٧٠ .

<sup>(</sup>٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٧٤.

[المؤمنون:٥٥-٤٨].

فهذه النظرة الدونية من فرعون لموسى عليه السلام سببها ما كان عليه فرعون من القوة والسلطان.

وقد سبق فرعون قوم هود عليه السلام فيما ذكر القرآن الكريم من أخبارهم، وقص علينا من أنبائهم، إذ إنهم استكبروا وجحدوا آيات الله، وكان سبب هذا التمرد والتكبر والطغيان هو ما كانوا عليه من القوة الشديدة، فاغتروا بهذه القوة وتكبروا على الحق، فأهلكهم الله.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادُّ فَاسْتَكَبُرُوا فِي ٱلْأَرْضِ بِفَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَا قُوَةً أَوَلَتَ يَرُوْا أَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَةً وَكَانُوا بِعَايَتِنَا يَجْمَحُدُونَ ﴿ فَا فَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيعًا

## صَرَّصَرًا فِيَ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْفِرْيِ فِي الْمُيَوْقِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١١) [فصلت: ١٥-١٦].

ولا عجب أنك ترى في هذا الزمان من أوتي من القوة والعتاد على المستوى العسكري والتكنولوجي ما أبهر المنهزمين نفسيًا وأخلاقيًا وعسكريًا وتكنولوجيًا، حتى اعتقد أكثرهم أن تلك الدولة صاحبة تلك القوة لن تهزم، وأن أحدًا لن يستطيع أن يصمد أمامها، وقاس هؤلاء المنهزمون قوة العدو بقوة المجاهدين، وقضوا بأن لا تكافؤ بين القوتين، وأن الهزيمة محققة للمجاهدين.

ونسي هؤلاء المنهزمون، ونسي كذلك هؤلاء المغترون بقوتهم وعتادهم أن الله هو أشد منهم قوة، وأنه سبحانه مهلك الطغاة المتمردين، والعتاة المتكبرين. إنها سنة الله في الأولين والآخرين، فكما أهلك عادًا الأولى، وفرعون الذي طغى، فإنه مهلك كل متمرد على الحق، متكبر على عباد الله، وحينئذ لن تكون له فئة ينصرونه من دون الله، ولن يكون منتصرًا.

#### مظاهر الاستكبار

بديهي أن يكون المتكبر في المجتمع ظاهرًا، وأن حاله معلومة بصفات تظهر عليه، وتبدو في أفعاله وسلوكه، ولظهور أمر المتكبرين في المجتمع «قال العلماء: كل ذنب يمكن التستر به وإخفاؤه إلا التكبر فإنه فسق يلزمه الإعلان.»(١).

والاستكبار له علامات تدل عليه، وأمارات تومئ إلى أن صاحبها من المتكبرين، نقف على تلك المظاهر ونتعرف عليها من خلال النقاط الآتية:

## أولًا: ترك العمل بشرع الله:

هذه أول خصلة من خصال المتكبرين، فهم قوم يعاندون الحق، ويتمردون على شرع الله، ويتكبرون على رسل الله والدعاة، فيكون تركهم للعمل بشرع الله من باب أولى.

لذا نجد القرآن الكريم قد ذكر أن أول مظهر من مظاهر الاستكبار هو ترك العمل بشرع الله، والتمرد على طاعته والإذعان لأمره، وهو ما وقع من إبليس اللعين، حيث أبى الخضوع لأمر الله ورفض طاعته فيما أمره به من السجود لآدم عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْهَالَتِهِكَةِ السَّجُدُوالِآذَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِنْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٩.

## وَكَانَ مِنَ ٱلْكُنفِرِينَ ﴿ إِنَّ الْبَقْرِةِ: ٣٤].

فكان رفضه للسجود لآدم مظهرًا من مظاهر كبره. وشأن كل من أبى السجود لله تعالى شأن إبليس في رفضه السجود لآدم عليه السلام، لذا ذم الله ناسًا استكبروا عن السجود له حين أمرهم به، ومدح من خضع إلى عظمته وتذلل إليه، فذكرهم بصفة العبادة الدائمة والطاعة المطلقة التي ليشوبها كبر ولا تمرد على أمره، مرغبًا في الطاعة، ومحذرًا من المخالفة.

فقال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَنتِهِ ٱلَّيْتُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا شَبَجُدُوا لِلسَّمْسِ وَالْقَمَرُ لَا شَبَجُدُوا لِلسَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلّهِ ٱلّذِي خَلَقَهُنَ إِنَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿ اللّهِ فَإِن السَّبَحُونَ عَن اللّهُ عَنْ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ ال

وفي سياق آخر أمر الله تعالى بالإصغاء والإنصات لكلامه إذا تلي، وبذكره ذكرًا دائمًا سرًا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، ونهى عن الغفلة عن ذكره، ثم مدح الذين عنده بصفة التواضع وعدم التكبر عن أمر الله وطاعته؛ تعريضًا بمن غفل عن ذكر الله، وأن ترك العمل بشرعه، ومخالفة أمره ومعصيته ليست من شأن العابدين الطائعين، وإنما هي من شأن المستكبرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا

# يَسْتَكَمْرُونَ عَنْ عِبَادَيْهِ وَيُسَيِّحُونَهُ وَلَهُ يَسَجُدُونَ اللهِ يَسْجُدُونَ اللهِ اله

إن طاعة الله تعالى فيما أمر، والبعد عن كل ما نهى عنه وزجر سمة المؤمنين العابدين، وهي مظهر من مظاهر التواضع والخضوع والتذلل لعظمة الله، وعلى العكس تمامًا فإن الذي يرفض العمل بشرع الله، ويأبى الطاعة المطلقة للخالق الكبير المتعال، يعد فعله هذا مظهرًا من مظاهر التكبر والكبرياء على منهج الله.

#### ثانيًا: التكذيب:

من مظاهر الاستكبار: التكذيب بكل ما هو حق، والتصديق بالباطل، فإذا رأيت الرجل يكذب بالحق إذ جاءه، ويماري فيه بعدما تبين، فاعلم أنه من المستكبرين، وقد قص علينا القرآن من خبر الأولين، وكشف عن صفة السابقين؛ بأنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، وكذبوا رسل الله بعدما والأباطيل، فاسمع إلى هذا الحوار الذي يظهر فيه تعنت فرعون وملئه، وتكبرهم على موسى وأخيه عليهما السلام وتعاليهم عليهما، برغم وضوح المعجزات بما لا يدع مجالًا للمماطلة، لكنهم قوم مستكبرون على الحق مجرمون، ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنون.

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَمَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَنُرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ مِعَايْنِينَا فَاسْتَكْبُرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْمِرِمِينَ ۞ فَلَمَا جَآءَهُمُ اَلْحَقُّ مِنْ عِندِهَا قَالُوا إِنَّ هَلْذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ۞ قَالَ مُوسَىٰ اَتَقُولُونَ لِلْحَقِ لَمَا جَآءَ كُمُّ أَسِحْرٌ مُلِينٌ ۞ وَلَا يُعْلِحُ السَّنْحِرُونَ ۞ قَالُوا أَجِمْتُنَا لِتَلْفِئَنَا عَمَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَالِمَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَّا الْكِيْرِيَّامُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحُنُ لَكُمَّا مِمُومِينِينَ ۞ [يونس:٥٧-٧]. فَاي تعنت هذا؟! وأي استكبار ومعاندة؟!

تكذيب فاتهام، يتلوهما قرار برفض الإيمان بما جاء به موسى عليه السلام بحجة التمسك بموروث الآباء والأجداد، وبمبرر زائف ممجوج: وتكون لكما الكبرياء في الأرض، وهذا لعمري تصرف الجهلاء، لا يقارعون الحجة بالحجة، وإنما يلجأون إلى الاتهامات والأراجيف وسيلة للدفاع عن غيهم وتكذيبهم، فأمرهم عجيب، وشأنهم غريب.

وإن من مظاهر تكذيبهم بالحق أنهم يكفرون بالله ويجعلون له الشريك، رغم وضوح الدلائل وظهور البراهين، فإنهم يبقون على ما هم عليه من الكفر والجحود، استكبارًا من عند أنفسهم.

قَالُ تعالى شأنه: ﴿ إِلَنَهُكُمْ إِلَهُ وَنَعِدُّ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُسْتَكْبُرُونَ ﴿ ﴾ [النحل:٢٢].

«لما ذكر تعالى ما اتصفت به آلهتهم بما ينافى الألوهية، أخبر تعالى أن إله العالم هو واحد لا يتعدد ولا يتجزأ، وأن الذين لا يؤمنون بالجزاء بعد وضوح بطلان أن تكون الإلهية لغيره بل له وحده، هم مستمرون على شركهم، منكرون وحدانيته، مستكبرون عن الإقرار بها؛ لاعتقادهم الإلهية لأصنامهم وتكبرها في الوجود. ووصفهم بأنهم لا يؤمنون بالآخرة مبالغة في نسبة الكفر إليهم، إذ عدم التصديق بالجزاء في الآخرة يتضمن التكذيب بالله تعالى وبالبعث، إذ من آمن بالبعث يستحيل أن يكذب الله عز وجل.»(١) فظهر بذلك أن إشراكهم مع الله آلهة أخرى، وتكذيبهم به وباليوم الآخر مظهر من مظاهر كبرهم وجحودهم.

وقد توعد الله تعالى هؤلاء المكذبين المصرين على ما هم عليه من الكبر، فقال: ﴿ وَيْلُ لِكُلِّ أَفَّاكِ أَيْهِ إِنَّ يَهْمَهُ ءَاينتِ اللَّهِ تُنْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُعِيثُرُ مُسْتَكْفِرًا كَأَن لَهُ يَسْمَعُهَا ۖ فَيَثِيرُهُ بِعَلَابٍ أَلِيمِ (١٤١٥ - ١٥).

وهذا الكبر لا يقف على زمان دون زمان، ولا يختص به مكان دون مكان، وإنما هو متعاقب في الأجيال عبر الأزمان، فلا يكاد يخلو زمان من الأزمنة، أو مكان من الأمكنة من المكذبين المنكرين للحقائق تمردًا وتكبرًا، ألا ترى العالم اليوم؟! كيف

يرى الظلم عدلًا ويرى العدل ظلمًا؟! وكيف يبرر للظالم ظلمه؟! بهذه العنجهية المتغطرسة يرون الحقيقة بادية فيتكبرون عليها، ويصرون على غيهم وعنادهم، حين يقتل المسلم أو يدافع عن نفسه وأرضه وعرضه يقولون: إرهابي، وإن شيك الظالم الباغى يستنكرون ويشجبون، بهذه النفسية المتمردة على الحق يبررون لظلمهم في إعلامهم الكاذب، ويسوقون لكذبهم ودجلهم باصطناع البرامج وفبركتها والتلبيس على العامة. فالكذابون والدجالون هم هم، الذين كانوا على عهد موسى عليه السلام، هم أنفسهم الذين كانوا على عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهم أنفسهم -على نفس المنهجية- في عصرنا الحالى، لا يتغيرون ولا يتبدلون، الكذب سمتهم، فويل لهم.

## ثالثًا: احتقار الناس وظلمهم:

من أبرز المظاهر التي تبدو على المتكبرين احتقارهم للناس وازدراؤهم لهم، لأن التكبر تعالى على الناس، فيرى المتكبر نفسه في درجة أعلى، ومنزلة أسمى. إن المتكبرين في حالهم هذه أشبه بحال من كان على قمة جبل والناس من تحته، فهو يراهم صغارًا، ويرونه صغيرًا.

لقد كشفت آيات القرآن الكريم عن هذه

<sup>(</sup>١) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٩.

السمة عند المتكبرين، وذمت فيهم هذه الخصلة، حينما نظروا إلى المؤمنين الذين اتبعوا رسل الله نظر شزر وازدراء، فقال جل شأنه في حق الملأ من قوم نوح عليه السلام الذين ازدروا المؤمنين بقولهم: ﴿ وَمَا نَرَنْكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلْنَا ﴾

فرد عليهم نبى الله نوح عليه السلام: ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدُرِي آَعَيُنُكُمْ لَن يُوْتِيَهُمُ اللَّهُ خيرًا ﴾ [هود:٣١].

وهذا يوضح لنا أن هذه النظرة من الملأ للمؤمنين مظهرٌ من مظاهر التكبر والتعالى، فكان تكبرهم هذا سببًا في عدم متابعة نبيهم والإيمان برسالته.

وشأن الملأفي نظرتهم هذه إلى المؤمنين التابعين للرسل تكررت من فرعون لموسى عليه السلام، وإن اختلفت في شكلها، لكنها هي هي في مضمونها.

قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿ أَمِّ أَنَّا خَيْرٌ مِنْ هَذَا ٱلَّذِي هُوَمَهِينُّ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿ ﴾ [الزخرف:٢٥].

والمعنى: ﴿ أَمْرَأَنَّا خَيْرٌ ﴾ مع هذه المملكة والبسطة ﴿ مِنْ هَذَا ٱلَّذِي هُو مَهِينٌ ﴾ ضعيفٌ حقيرٌ، من المهانة: وهي القلة. ﴿وَلَا يكَادُ يُبِينُ ﴾أي الكلام.

قاله افتراءً على موسى عليه السلام؛ تنقيصًا له عليه السلام في أعين الناس،

باعتبار ما كان في لسانه عليه السلام من نوع رتةٍ، وقد كانت ذهبت عنه؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُونِيتَ سُؤُلُكَ ﴾ [طه:٣٦] (١).

وقد تكرر الأمر مع خير الخلق وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، يحتقرونه ويزدرونه ويستهزئون به ويسخرون منه، فقالوا له كمقالة فرعون تلك لموسى عليه السلام، ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَنذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلِ مِّنَ ٱلْقَرْيَكَيْنِ عَظِيمٍ اللهِ الزخوف: ٣١].

«وهذا باب آخر من إنكارهم للنبوة، وذلك أنهم أنكروا أولًا أن يكون النبي بشرًا، ثم لما بكتوا بتكرير الحجج، ولم يبق عندهم تصور رواج لذلك، جاؤا بالإنكار من وجه آخر، فتحكموا على الله سبحانه أن يكون الرسول أحد هذين، وقولهم ﴿ هَنَذَا ٱلْقُرْءَانُ ﴾ ذكر له على وجه الاستهانة؛ لأنهم لم يقولوا هذه المقالة تسليمًا بل إنكارًا، كأنه قيل: هذا الكذب الذي يدعيه لو كان حقًا لكان الحقيق به رجل من القريتين عظيم، وهذا منهم لجهلهم بأن رتبة الرسالة إنما تستدعي عظيم النفس بالتخلي عن الرذائل الدنية، والتحلى بالكمالات والفضائل القدسية دون التزخرف بالزخارف الدنيوية»(٢).

ولهذا قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم مستهزئين به، منتقصين مستصغرين

<sup>(</sup>۱) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ٥٠. (٢) روح المعاني، الألوسي، ٢٥/ ١٢٠.

له: ﴿ وَإِذَا رَأُولُ إِن يَنَّخِذُونَكَ إِلَّا هُـرُوا أَهَاذَا اللهِ اللهِ عَلَى اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ وَاللهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ ال

«وفي اسم الإشارة دلالة على استحقارهم له، وتهكمهم به»(١).

وأشبه بهم حال المنافقين، حيث كانوا على هذه الشاكلة من الاستهزاء والازدراء، حتى ظهر ذلك في سلوكهم، فقد أخبر القرآن عنهم بما يفضح سريرتهم، ويكشف سوأتهم، وذلك في سورة الفاضحة-التوبة.

قال تعالى: ﴿ وَلَهِن سَكَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُنَ وَلَهِن سَكَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُنَ إِنْمَا كُنّا خَوْشُ وَلَلْمَبُ قُلُ أَبِاللّهِ وَوَالِيَنِهِ، وَرَسُولِهِ، كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿ ﴾ لَا تَمْنَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَنِكُمْ أَإِن نَعْفُ عَن طَآهِفَةً بِأَنْهُمْ كَانُوا مُلْمَا فِفَةً بِأَنْهُمْ كَانُوا مُعْرِمِينَ ﴿ التوبة: ٢٥-٢٦].

يقول سيد قطب رحمه الله عن سؤالهم هذا: «... قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفي اللئيم، إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم: إن ما يقوله محمد لا يفهم، أو لا يعني شيئًا يفهم. فهاهم أولاء مع استماعهم له، لا يجدون له فحوى ولا

كذلك قد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه -كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم- فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية، وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين» (٢).

لم يتغير حال المتكبرين في استصغارهم واحتقارهم وازدرائهم للمؤمنين والدعاة، كأن هذا الأمر فيهم وراثة، ورثوه كابرًا عن كابر، بداية من قوم نوح عليه السلام، إلى قوم موسى عليه السلام، إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا زال الأمر باقي إلى يومنا هذا.

ولعل وسائل الإعلام المغرضة والمسيسة التابعة إلى بعض الحكومات المنحرفة، وما يجري فيها من لقاءات وبرامج خير شاهد على استمرار احتقار أهل الفضل والصلاح، والسخرية والاستهزاء من الجماعات العاملة في حقل الدعوة، ليظل هذا مظهرًا فيهم، يعرفون به، وتعلم أحوالهم من خلاله.

يمسكون منه بشيء!

<sup>(</sup>٢) في ظلال القرآن،٦/ ٣٢٩٤.

<sup>(</sup>١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٩٧.

## رابعًا: جحود نعم الله:

امتن الله تعالى على عباده بما آتاهم من نعم لا تعد ولا تحصى.

قال تعالى: ﴿ وَمَاتَنكُمْ مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن نَعَمُ لُوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْمُمُوهَا ۗ إِن نَعَمُ لُوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْمُمُوهَا ۗ إِن اللهِ لَا عُمْمُوهَا اللهِ المُلْمُ اللهِ المُلْمُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ المُلْمُ اللهِ اللهِ المُلْمُ اللهِ المُلْمُلْمُ اللهِ المُلْمُ اللهِ المُلْمُ اللهِ المُلْمُلْمُ اللّهِ الْمُلْمُ اللّهِ اللهِ المُلْ

وجعل الله تعالى هذه النعم مسخرة لهذا الإنسان وطوعها له، يتصرف فيها بأنواع التصرف.

قال تعالى: ﴿ الْمَرْمَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِ السَّمَنَوْتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَنِهِرَةً وَيَاطِئَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

وأمر الله تعالى هذا الإنسان بأن يصون هذه النعم ولا يجحدها؛ لأن جحدها مؤذنٌ بزوالها، كما أن شكرها يزيدها وينميها.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتَ رَبُّكُمْ لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأْزِيدَنَّكُمْ ۚ وَلَيْنِ كَغَرْمُ إِنَّ عَذَابِي نَشَدِيدٌ ﴿ ﴾ [إبراهيم:٧].

إلا أن الإنسان ظلوم كفار، قليل الشكر، كثير الجحود لهذه النعم-إلا من رحم الله. إن جحود الإنسان لنعم الله تعالى عليه،

وعدَّم شكرها يعد مظهرًا من مظاهر كبره، وعلامة من علامات تمرده ونكران الجميل، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

فكان حريًا به أن يشكر هذه النعم التي أولاها الله إياه بغير حساب، فالله غنى عن

عباده وهم محتاجون إليه بيد أن فئة من الناس تكبرت على هذه النعم وجحدتها، فكان عذاب الله شديدًا، فآخذهم على نكرانهم وكفرهم لهذه النعم.

وقد ضرب الله تعالى مثلًا لهذا النوع من الناس بقصة قارون من قوم موسى، الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، ونصحه الصالحون من قومه ألا تفرح فإن الله لا يحب الفرحين، وذكروه بالآخرة، وأنها خيرٌ وأبقى، وحذروه ونصحوه، لكنه كفر هذه النعمة وجحدها، وأبى أن يرجع فضلها إلى الله، وقال: إنما أوتيته على علم عندي.

فلما كان كذلك أنزل الله عليه سخطه وعذابه، فخسف به وبداره الأرض ليكون عبرة لمن بعده، ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨].

وأعظم نعمة وهبها الله لهذا الإنسان

في الوجود يجحدها المنكرون هي نعمة الإسلام؛ حيث أرسل الله رسله لهذا الإنسان يهدوه إلى الدين القويم والصراط المستقيم، ويرشدوه إلى رضا الله، وإلى ما يحفظ عليه كيانه ومكانته في هذا الوجود، لكن هذا الإنسان واجه دعوة الرسل بالكفران، وكال الاتهامات إلى رسل الله كيلا، كما أخبر بذلك القرآن: ﴿كُذَلِكَ مَا أَلْهِم مِن رَّسُولٍ إِلّا قَالُواْ سَلِيمُ أَرْبَعَنُونُ وَالله الله الذاريات: ٢٥].

هذا الرفض للدين الذي دعا إليه رسل الله يعد مظهرًا من مظاهر الاستكبار على هذه النعمة العظيمة، وكثيرٌ هم من هذا حالهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُوْمِنَ اللهِ اللهِ اللهُ الل

بهذا الكبرياء، على مر العصور وفي كل مكان على تعاقب الزمان.

## خامسًا: إكراه المستضعفين على اتباع الباطل:

من مظاهر الاستكيار: إكراه الملأ وكبراء القوم من الظلمة والفسقة للمستضعفين على اتباعهم على باطلهم، وكفرهم كما كفروا ليكونوا سواءً على ملة واحدة، وهذه سمة بارزة في الأقوام الأولين منهم والآخرين، ومن قرأ قصص الأولين وسيرة خير المرسلين وقف على هذا الأمر، وأدرك يقينًا أن الملأ والسادة لا يهنأون ولا يهدأون وهم يجدون ضعفاء القوم على الحق سائرين؟ لأن هذا في نظرهم يهدد مصالحهم، إذ كيف يكون لهم سلطة ونفوذ إذا لم يوجد مستضعفون تحت إمرتهم، يأمرونهم وينهونهم وينفذون لهم ما يريدون؟! إذن مصلحتهم تقتضي أن يكون المستضعفون من القوم على ملتهم وتحت إمرتهم، هم يخططون، والمستضعفون ينفذون.

## إكراه المستضعفين من قوم شعيب عليه السلام.

وقع الإكراه من الملأ لنبي الله شعيب عليه السلام والمؤمنين معه، حيث هددوه وحذروه بين أن يخرجوه من بلده ووطنه ومن بين أهله، أو أن يعود لدينهم ويدخل في ملتهم –ملة الكفر – ؛ لكن الإيمان إذا تملك القلب وتمكن منه، فهيهات هيهات أن يكون للشرك والكفر منه نصيب، هذا ما وقع بين

نبي الله شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين وبين قومه المتكبرين المتمردين على الحق، فقد قص علينا القرآن من نبئهم فقال: ﴿ قَالَ الْمَلَا الْمَدِينَ السَّكَمْرُوا مِن قَوْمِهِ لَنَّا اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ اللللَّهُ الللللللَّهُ الللللللْمُ الللللَّهُ الللللَّهُ اللللللْمُ اللَّهُ الللللللْمُ اللللللللْمُ الللَّهُ اللللللْمُ الللللللْمُ اللللللللْمُ اللللللْمُ اللللللْمُ اللللللْمُ اللللللْمُ اللللللل

«هكذا سنة الطغاة الظلمة إذا غلبوا بالحجج والبراهين يفزعون إلى القوة،فلما أفحمهم شعيب خطيب الأنبياء عليهم السلام، وقطع الطريق عليهم شهروا السلاح في وجهه، وهو النفي والإخراج من البلاد أو العودة إلى دينهم الباطل.»(١) وهذا حال الظالمين في كل زمان.

حوار بين المستكبرين والمستضعفين
 من قوم صالح عليه السلام.

إن قوم صالح عليه السلام نموذجٌ حيٌ في هذا الباب، فلنذكر الآيات الكريمات التي تقص علينا من أخبارهم.

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ السَّتُضِعِفُوا السَّتُصُالِحًا السَّتُضِعِفُوا السَّتُضِعِفُوا السَّتُضِعِفُوا السَّتُصُوبَ السَّتُضِعِفُوا السَّتُصُوبَ السَّتُصُوبَ السَّتُصُعِفُوا السَّتُصُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصِيمُ السَّتُصِيمُ السَّتُصِيمُ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصِيمُ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصِيمُ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُ السَّتُ السَّتُصَالِحُوبَ السَّلَمُ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّتُصَالِحُوبَ السَّلَمِ السَّلَمِيمَ السَّلَمِ السَّلَمِيمَ السَّلَمِ السَّلَمِيمَ السَّلَمُ السَّلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَّلَمُ السَّلَمِيمَ السَّلَمُ السَّلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَلَمِيمَ السَّلَمِيمَ السَلَمِيمَ السَلَمِيمَ السَلَمِيمَ السَلَمِيمَ السَلَمِيمَ السَلَمِيمَ السَلِيمَ السَلِمَ السَلِمَ الْعَلَمُ السَلِمَ السَلِمِيمَ السَلِمِيمَالِمِيمَالِمَالِمِيمُ السَلِمَ السَلِمِيمَ السَلِمِيمَ السَلَمَ السَلِمَ السَلِمَ السَلَا

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٢٠٤/٢.

مُنْ سَلُّ مِن دَّيِهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أَرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَحْبَرُواْ مُؤْمِنُونَ ﴿ الْسَنَحْبُرُواْ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللِّهُ اللَّهُ اللْمُلْلِمُ اللْمُلْلِلْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللْمُ اللَّهُ ا

إنها قمة العنجهية والكبرياء والإباء من السادة والقادة، وفي المقابل ثبات ويقين وصدق مع الله من قبل المستضعفين، فالملأ من قوم صالح عليه السلام -كما يبدو من سياق الآيات- خلوا بالمستضعفين من المؤمنين، وجلسوا إليهم في معزل عن نبي الله صالح عليه السلام، وهددوهم وخوفوهم من متابعته، ولكنه اليقين وثبات الإيمان حينما يتملك القلوب لا تزعزعه التهديدات ولا الوعيدات ولا أي قوة مهما للغت.

يقول سيد قطب رحمه الله: «وواضح أنه سؤالٌ للتهديد والتخويف، ولاستنكار إيمانهم به، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه.ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافًا! لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، والاطمئنان في منطقهم. إنهم على يقين من أمرهم، فماذا يجدي التهديد والتخويف؟ وماذا تجدي السخرية والاستنكار من الملأ المستكبرين؟ ﴿قَالُوا إِنّا بِمَا أَرْسِلَ بِهِمَا المستكبرين؟

## مُؤْمِنُونَ ﴾)(١).

وأيضًا: ﴿قَالُواْ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿ اللَّهُ وَمَا لَنِقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَا بِكَايَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَادَتُنا رَبِّنَا أَلَّا مُسَلِمِينَ جَلَةَ ثَنَا رُبِّنَا أَفَرْغُ عَلَيْنَا صَبّرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿ الْأَعْرَافُ عَلَيْنَا صَبّرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿ الْأَعْرَافُ الْمُسْلِمِينَ ﴿ الْأَعْرَافُ الْمُسْلِمِينَ ﴿ الْأَعْرَافُ الْمُسْلِمِينَ ﴿ اللَّهُ اللَّلْمُ اللَّهُ اللَّلْمُ اللَّالِمُ اللَّالِمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُو

ولا فرق بين هذه العنجهية والكبرياء الذي عليه المتمردون في الأقوام السابقة وما عليه المتمردون والمستكبرون في هذا العالم الظالم اليوم، حينما يجد المسلمون أنفسهم في موجة من التحديات عاتية، وممارسات في حقهم مجحفة، ليس ذلك

إلا لأنهم ينشدون نشر العدل والفضيلة، وكف الظلم والرذيلة، ويطلبون الكرامة لهذا الإنسان في هذا الوجود، لا أن تكون الحياة لصنف الظلمة والمستكبرين، والسحق للباقين، فإن هذا لا يرضي أحدًا من المنصفين.

#### سادسًا: العتو والطغيان:

تلمس وأنت تقرأ سيرة المستكبرين في القرآن الكريم مدى التعالي والعتو والطغيان الذي هم عليه، وتجد فيهم البطش الشديد ضد الأنبياء والمرسلين، وأولياء الله الصالحين، فهذه الصورة تعد مظهرًا بارزًا من مظاهر الاستكبار، بها يعرفون، ومن خلالها يتميزون.

ولعل إكراه المستكبرين للمستضعفين على اتباع باطلهم، يعد نموذجًا حيًا ومثالًا واضحًا لما عليه المستكبرون من عتو وطغيان، إنهم لم يكتفوا بما هم عليه من الباطل، بل ذهبوا يضلون عباد الله المؤمنين، ويسعون لصدهم عن سبيل الله بمختلف الوسائل والسبل، حتى لو كان ذلك بالتهديد والتعذيب، أو قد يصل أحيانًا إلى درجة القتل،قد بلغوا في ذلك حد التفاني في الصد عن الحق.

فانظر إلى طغيان فرعون، فيما أخبر القرآن عنه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهُمَا ٱلْمَكُلُّ

<sup>(</sup>۱) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٣١٣/٣-١٣١٤.

مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنَ إِلَنهِ غَيْرِف فَأَفَوْد لِي يَنهَنهُ ثُنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي مَرْحًا لَمَكِيَّ أَطَّلِعُ إِلَيْهِالِنهِ مُوسَف وَإِنِّ لَأَظُنْهُ مِن ٱلْكَنبِينَ أَطَّلِعُ إِلَيْهِالِنهِ مُوسَف وَإِنِّ لَأَظُنْهُ مِن ٱلْأَرْضِ بِعَكْيرِ الْحَقِ وَظُنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْسَنَا لَا يُرْجَعُونَ اللَّهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ ال

وقال عنه أيضًا: ﴿فَقَالَ أَنَا رَئِكُمُ ٱلْأَعَلَىٰ اللَّهَالَ أَنَا رَئِكُمُ ٱلْأَعَلَىٰ [ النازعات: ٢٤].

ولذلك قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُ مُلَنَى ﴾ [النازعات: ١٧].

فأي استكبار بعد هذا الاستكبار؟! وأي طغيان بعد هذا الطغيان؟! أن ينازع الله تعالى في ألوهيته وربوبيته فذلك قمة العتو والطغيان والاستكبار.

ويناظره نمرود الذي ادعى ذلك لنفسه، فقال لإبراهيم عليه السلام: ﴿ أَنَا أُحِيهِ وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وانظر أيضًا رد الملأ من قوم صالح عليه السلام بعدما تبين لهم الحق: ﴿فَعَقَرُوا السلام بعدما تبين لهم الحق: ﴿فَعَكَرُوا النَّاقَةَ وَعَكَرُوا عَنْ أَمْرٍ رَبِّهِمَ وَقَالُوا يَنصَلِحُ النَّاقَةَ وَعَكَمُوا إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿ اللَّهِ اللَّهُ اللَّاللَّا اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّ

تحد صارخ، وعتو فاجر، وإصرار على العناد والكفر، فكان عاقبة أمرهم خسرًا.

وقد سبقهم في موقفهم هذا قوم نوح عليه السلام، فقد أمرهم ونهاهم، وبين لهم ما به يتقون، فاحتجوا لكفرهم به بأنه اتبعه

الأرذلون، فلما أجابهم بأنه ليس إلا رسول مبين: ﴿ قَالُوا لَهِن لَمْ تَنتَهِ يَننُوحُ لَتَكُونَنَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ اللهِ المَا اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ المُلْمِ

اعدلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجبر والتوعد، فلما سمع نوح قولهم هذا، قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَرَّمِى كَلَّبُونِ الشعراء:١١٧].

أي: أصروا على تكذيبي، ولم يسمعوا قولي، ولا أجابوا دعائي»(١١).

فهذا هو حال المستكبرين في كل زمان، فلقد رأينا اليوم أقوامًا لا يختلف حالهم عن سلفهم الأولين، يحذون حذوهم في مواجهة الحق، ويسيرون على خطاهم في الكيد للإسلام والمسلمين، ومظهر العتو والطغيان فيهم بارز للعيان، لا يحتاج تصنيفهم في المستكبرين والمتمردين في هذا الكون في هذا الزمان كثير تفكير أو روية، فإنهم قوم ملكوا من أسباب القوة المادية أو التكنولوجية أو الاقتصادية أو الإعلامية... الغطرسة والكبرياء في هذا العالم.

ولكن الحق في علو وظهور، والباطل في انحدار وانكسار، ولكنكم تستعجلون، وهي سنة الله في الأولين والآخرين، ولن تجد لسنة الله تحويلًا.

<sup>(</sup>١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/١٣٧.

## سابعًا: الاستنكاف عن العبادة:

سبق أن بينا معنى الاستنكاف، وهو أوسع دلالة وأعلى رتبة من الاستكبار، لما فيه من الأنفة والتنقص والاستصغار. والاستنكاف عن عبادة الله تعالى مظهر من مظاهر الاستكبار وعلامة من علاماته؛ لذا توعد الله تعالى المستنكفين عن عبادته بالعذاب الأليم، فقال: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسْيَحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِللهِ وَلا الْمَلَيْكَةُ اللهُ وَلا الْمَلَيْكَةُ اللهُ وَلا الْمَلَيْكَةُ اللهُ وَلا الْمَلَيْكَةُ اللهِ وَلا الْمَلَيْكَةُ اللهِ وَلا الْمَلَيْكَةُ الله وَمَن يَسْتَنكِفَ عَنْ عِبَادَيِهِ وَيَسْتَكَيْرُونَ وَمَن يَسْتَنكِفَ عَنْ عِبَادَيِهِ وَيَسَتَكِفُ عَنْ عِبَادَيِهِ اللهُ وَلَا الْمَلَيْكَةُ اللهُ وَلا الْمَلَيْكَةُ اللهِ وَلا الْمَلَيْكَةُ اللهِ وَلا اللهُ اللهِ عَلَيْكِ عَلَى اللهُ وَلَا اللهِ وَلِيا وَلا اللهِ وَلَيا وَلا اللهِ وَلَيا وَلا اللهِ وَلِيا وَلَا اللهِ وَلِيا وَلا اللهِ وَلِيا وَلا اللهِ وَلَيَا وَلا اللهِ وَلِيا وَلا اللهِ وَلَا اللهِ وَلِيا وَلا اللهِ وَلِيا وَلا اللهِ وَلَيْ وَلا اللهِ وَلَا اللهِ وَلِيا وَلا اللهِ وَلَا اللهِ وَلَا اللهِ وَلِيا وَلا اللهِ وَلَا اللهِ وَلَا اللهِ وَلَا اللهِ وَلَا اللهِ وَلَا اللهِ وَلِيا وَلا اللهِ وَلَا اللهِ اللهِ وَلَا اللهِ وَلَا

«أي: يأنف تكبرًا، ويعد نفسه كبيرًا عن العبادة»(١).

وهذا المظهر للمستنكفين عن عبادة الله تعالى يبدو واضحًا في قوم هود عليه السلام، إذ أخبرنا القرآن الكريم من حالهم وصفاتهم حينما دعاهم نبي الله هود عليه السلام إلى التوحيد، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فكذبه قومه واتهموه بالسفاهة، وذكرهم بما حدث لقوم نوح عليه السلام حينما كذبوا رسولهم ماذا حدث لهم؟! لكن ردهم

عليه كان ينم عن كبر وأنفة ورفض لعبادة الله وحده مع ترك عبادة ما كان عليه الآباء والأجداد، ﴿ قَالُوٓا أَجِعْتَنَا لِنَعْبُدُ اللهَ وَحَدَهُ، وَلَا جَدَاد، ﴿ قَالُوٓا أَجِعْتَنَا لِنَعْبُدُ اللهَ وَحَدَهُ، وَنَذَرَ مَاكَانَيَعْبُدُ اللهَ وَالْمَا تَمِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ اللهِ وَالْعَرافِ ٢٠٠].

ومثلهم قوم صالح عليه السلام، فعلوا مثل فعلتهم، وردوا على نبيهم بالرد إياه، ﴿ قَالُوا يَصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوا قَبْلَ هَالَمُ أَنَّهُ مَا يَعْبُدُ ءَابَآقُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكِ مِمَا تَدْعُونَا إَلَيْهِ مُرِيبٍ ( الله و د: ٢٢].

إن من كان هذا شأنه، وظهرت فيه صفة الاستنكاف عن عبادة الله، يلتمس لاستنكافه هذا المعاذير والحجج التي لا اعتبار لها عند العقلاء – ليعد هذا مظهرًا من مظاهر الاستكبار والتمرد.

## ثامنًا: التعاظم عن اتباع الحق:

من مظاهر الاستكبار: التعاظم عن اتباع الحق، والسير على طريق الهدى، واختيار السبيل الموصل إلى جنات الله رب العالمين، يتنكب هؤلاء المستكبرون تلك الطريق، يختارون الضلال على الهدى، والكبرياء على التقى، فبئس الاختيار.

وليس أدل على هذا المظهر مما ورد في شأن المنافقين-أخص بالذكر عبد الله بن أبي بن سلول- الذي كان يرأس حركة النفاق في المدينة المنورة بعد هجرة النبي

<sup>(</sup>١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٦٨٢.

إنه قد علت أنفتهم، وشمخت أنوفهم - فيما يبدو لهم - إلى الحد الذي جعلهم يتعالون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسعون للصد عن سبيل الله، تعاظمًا منهم عن اتباع الحق، وإمعانًا في الباطل والضلال، وهذه السمة موجودة عند كثير من الناس، تكبرًا كان ذلك صراحة منهم أو ضمنًا؛ لأن من ظهر له الحق ولم يتبعه، وأصر على ما هو عليه من الضلال والانحراف، يعد هذا تعالي على الحق، وترفع عن التواضع لعظمة الله فيما تعبد به الناس، ومن رفض أمر الله وفعل خلافه يعد هذا تمردًا على الحق، وتكبرًا على أمر الله، لذا كانت هذه الصفة مظهرًا من مظاهر الاستكبار بغير الحق.

فهذه جملة من مظاهر الاستكبار، حيثما وجدت إحداها في المرء كانت صفة من صفات المستكبرين في الأرض بغير الحق، مؤذنة بنزول سخط الله عليه، وهو في هذه الحالة بين خيارين: إما أن يتركها ويتبع الهدى، ويتواضع لله وللناس، أو أن يتمادى

في هذه الكبيرة، وحينئذ ليعلم أن فعله هذا يجعله مستحقًا لسخط الله وعقابه. وعلى العاقل أن يعرض نفسه على هذا الميزان ليرى أين يسير، وكيف المصير.



## نماذج قرآنية من المستكبرين

قص علينا القرآن الكريم من أخبار السابقين أفرادًا وجماعات، وكشف عن أحوالهم وصفاتهم ومصارعهم، وذكر الأسباب التي أدت إلى هلاك من أهلك منهم، ونجاة من أنجى، فكان الاستكبار عن طاعة الله تعالى سببًا رئيسًا من أسباب الهالكين المعذبين، وهاهنا أقف على نماذج من أحوال هؤلاء، سواء على مستوى الأفراد، أو على مستوى الجماعات.

## أولًا: أفراد مستكبرون:

هذه أمثلة يضربها لنا القرآن الكريم فيها موعظة بليغة للمعتبرين، وفيها من الزجر والوعيد للمخالفين:

#### ١. إبليس.

وهو أول المستكبرين المستنكفين عن أمر الله، قص الله تعالى علينا من أخباره، وكرر قصته في سور عدة، ليحذرنا منه، ويبين لنا مدى عداوته لهذا الإنسان، وأن هذه العداوة متجذرة فيه وفي ذريته لا محيد له عنها، وهي ترجع في تاريخها إلى لحظة خلق الله آدم عليه السلام، وأمر الملائكة بالسجود له تشريفًا وتكريمًا، وعبادة لله تعالى، لكن اللعين رفض أمر الله، وأبى أن يكون من الساجدين، فمقته الله تعالى، إذ

كيف له أن يرفض أمر خالقه؟! لكنه الكبرياء والتعاظم، فسأله الله تعالى عن سبب امتناعه عن السجود لآدم الذي خلقه الله بيديه؟ فقال: أنا خير منه، وقاس أصل خلقة آدم بأصل خلقته، فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار في نظره أفضل من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟! فتكبر عن أمر الله، وطلب من الله تعالى أن ينظره الوقت المعلوم، فأنظره الله تعالى إلى يوم الوقت المعلوم، فأقسم بعزة الله ليفتنن الوقت المعلوم، فأقسم بعزة الله ليفتنن عن الطريق المستقيم، لكن الله تعالى قد كتب أنه لا سلطان لإبليس على عباد الله المؤمنين، وإنما سلطانه على الذين يتبعونه من الغاوين.

## (الأعراف:١١-١٨].

لذا حذر الله تعالى الإنسان من اتباع خطواته والاغترار به، فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطُنَ لَكُوْ عَلَوًا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْيَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْعَكِ السَّعِيرِ اللهِ إناطر: ٦].

وقال جل شأنه: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ السَّلِمِ اللَّهِ اللَّذِينَ السَّلِمِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ الْمُعَالِمُ ال

قال أبو الفرج ابن الجوزي: «الواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عدواته من زمن آدم عليه الصلاة والسلام، وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال بني آدم، وقد أمر الله تعالى بالحذر منه»(١).

## ٢. النمرود.

كان نمرود على عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو أول من وضع التاج على رأسه، وتجبر في الأرض وادعى الربوبية، وقد آتاه الله الملك فطغى، أي كانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه (٢).

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَلَمَّ إِبَرَهِمَ مَ اللهِ عَلَمَ إِبْرَهِمَ مَ فِي رَبِّهِ أَنْ مَالَكُ إِذْ قَالَ إِبْرَهِمُ رَبِيَ فِي رَبِّهِ أَنْ أَمُنْكُ إِذْ قَالَ إِبْرَهِمُ رَبِيَ اللَّذِى يُحْيِد وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْي وَأُمِيتُ قَالَ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ

## بَهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبَهُتَ ٱلَّذِي كَغَرُّ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (السُّهُ [البقرة:٢٥٨].

ولا شك أن ما وقع من نمرود في المحاجة في جزئها الأول كان سفسطة ومكابرة على الحق.

قال الألوسي: «وأراد عليه السلام بـ ﴿ يُحْمِهُ وَيُمِيتُ ﴾ يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد اللعين غير ذلك، فقد روي عنه أنه أتى برجلين، فقتل أحدهما وترك الآخر وقال ما قال، ولما كان هذا بمعزل عن المقصود وكان بطلانه من الجلاء والظهور بحيث لا يخفى على أحد، والتعرض لإبطال مثل ذلك من قبيل السعي في تحصيل الحاصل، أعرض الخليل عليه الصلاة والسلام عن إبطاله وأتى بدليل آخر أظهر من الشمس» (٣). فما كان إلا أن بهت الذي كفر، وانقطع عن المحاجة.

٣. فرعون.

فرعون نموذج الطغيان، ضرب الله تعالى به المثل في العلو والاستكبار والافتراء والظلم والفساد، سفك الدماء، وعذب الناس، وعبد بني إسرائيل، ثم زاد في الطغيان والعتو والاستكبار حتى ادعى لنفسه الربوبية والألوهية، فأرسل الله تعالى له موسى عليه السلام، وجعل معه أخاه هارون وزيرًا وردءًا يصدقه، وآتاه من الآيات

<sup>(</sup>١) تلبيس إبليس، ص٣٣.

<sup>(</sup>٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٣١٥.

<sup>(</sup>٣) روح المعاني، ٣/ ٢٧.

ما فيه بلاء مبين، لكنه كذب وعصى، وأدبر يسعى، وقال أنا ربكم الأعلى، بل وقال: ما علمت لكم من إله غيري، ثم قد استهان بموسى عليه السلام وازدراه واستخف به، فقال في كبرياء: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا اللَّهِي هُوَ مَهِينُ وَلَا يَكَادُ بُهِينُ اللَّهِ ﴾ [الزخرف: ٥٢].

وجمع السحرة، وبدأت المبارزة، وألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل أمر الساحرين، وألقوا جميعهم ساجدين.

قالوا: آمنا برب العالمين، فقال لهم فرعون في كبرياء وتعاظم: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُمْ أَنَّ مِنْكُمُ اللَّذِي عَلَمَكُمُ اللَّذِي الللْهُ اللَّذِي اللَّذِي الللَّذِي اللَّذِي اللللْهُ اللَّذِي اللللْهُ اللَّذِي اللَّذِي اللَّذِي اللَّذِي اللَّذِي الللَّذِي الللَّذِي اللَّذِي اللَّذِي اللَّذِي اللَّذِي اللللْهُ اللَّذِي اللللْهُ اللللْهُ اللَّذِي اللللْهُ اللَّذِي الللْهُ اللَّذِي اللَّذِي اللللْهُ الللْهُ الللِهُ اللللْهُ اللللْهُ الللِهُ اللللْهُ الللللْهُ الللللْهُ الللللِهُ اللللْهُ الللللْهُ اللللْهُ اللِهُ اللللْهُ الللللْهُ اللللْهُ الللللْهُ اللللْهُ الللللْهُ اللللْهُ الللللْهُ الللللْهُ الللللْهُ الللللْهُ الللللْهُ الللللْهُ الللللْهُ الللْهُ الللْهُ الللْهُ الللْهُ اللللْهُ الللللْهُ الللللْهُ اللللْهُ اللللْهُ اللللْهُ اللللْهُ اللْهُ الللْهُ اللِهُ الللْهُ اللْهُ اللللْهُ الللْهُ اللللْهُ اللللْهُ الللْهُ الل

ثم توعدهم بالتعذيب الشديد: ﴿ لَأَقَلِعَنَّ اللهِ لَهُ لَأَعَلِعَنَّ اللهِ لَهُ لَأَعَلِعَنَّ اللهِ اللهِ وَالْمُسَلِّبَتَكُمُ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٩].

فقد بدت من فرعون مواقف تنم عن كبريائه وتعاظمه:

منها: ادعاؤه الربوبية تارة، والألوهية تارة أخرى.

ومنها: ازدراؤه بموسى، ونظره إليه نظر شزر.

ومنها: تكذيبه بالحق لما جاءه، مع وضوح البينات والآيات.

ومنها: موقفه من السحرة لما آمنوا بموسى، حيث قال لهم: ﴿قَالَ مَامَنتُمْ لَهُ فَبَلَ

## أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ. لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعَلَمُونَ ﴾ [الشعراء:٤٩].

ومنها: توعده للسحرة لما آمنوا، وتعذيبه لمن آمن.

ومنها: إلصاق التهم بموسى عليه السلام، وبث الإشاعات حوله؛ من اتهامه بالسحر والكذب وغيرها.

كل هذه المواقف تدل على كبريائه وطغيانه واستبداده، وأن ذلك وقع منه للحفاظ على ملكه ورياسته، وبقاء سلطته دون منازع.

#### ٤. قارون.

قارون رجل من بني إسرائيل آتاه الله من الأموال مالا يحصى عددًا، ونعمه بأنواع النعم؛ من كنوز وقصور وخزائن وخدم وغيرها من أنواع النعم، غير أنه بدلًا من أن يتواضع لله ويؤدي حق الله تعالى فيما آتاه من مال، استكبر وتعالى على الناس، وأنكر أن يكون ذلك من الله، وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَوْلِيمَا الله على الناس، وأنكر أُولِيتُهُ عَلَى عِلْمِ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٨٧].

فاستكبار قارون كان بتكذيبه مبدًا، ثم بإسناده النعمة إلى نفسه وعدم إسناد فضلها إلى المنعم سبحانه وتعالى، ثم من ناحية ثالثة بعدم أداء حقها فيمن له الحق فيها من الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، فكان مصيره أن خسف الله به وبداره الأرض.

#### ٥. هامان.

هامان وزير فرعون، وشريكه في حكم البلاد والاستبداد، وهو يده الطولى في الفتل والتعذيب والإفساد والتمرد، لذا كان في رتبته في الاستكبار والعتو، فقال تعالى شأنه: ﴿وَقَنْرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَنَمُنَ مُومَوْنَ بِالْبَيْنَتِ فَاسْتَحَمُّمُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَيِقِينَ وَالعَنْدِينَ الله العنكبوت؟

فعده في جملة المستكبرين من الطغاة. وفي موضع آخر قال تعالى شأنه: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَا مُنَا مَا فَقَالُوا سَاحِرُ صَالَحَا اللهُ وَهَا مُنَا جَآءَهُم بِالْحَقِ مِنْ عِندِنَا قَالُوا الْقَتُلُوا أَبْنَآءَ اللّهِينَ ءَامَنُوا مَعَدُهُ وَالسَتَحْبُوا فِسَآءَهُم وَمَا كَيْدُ الْكَنفِرِينَ إِلَا فِي صَلكلِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ المُنافِقِينَ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ الله

فذكر أنه كان من المكذبين، وقد اتهم موسى بالسحر والكذب، ولما بين لهم موسى أنه رسولٌ من الله أيده بالمعجزات، وقد جاءهم بالحق منه، تمرد واستكبر وعلا وافترى، وراح يقتل أبناء الذين آمنوا، زيادة في العتو والاستكبار.

والآيات الكريمة قد ذكرته مقترنًا بفرعون الطاغية المستكبر في مواضع متعددة، ليدلل على أنه كان لا يقل عن أقرانه من فرعون وقارون في العتو والاستكبار.

## ثانيًا: أمم مستكبرة:

لم يقتصر الأمر في الاستكبار على هؤلاء الأفراد وحدهم، بل تعدى ذلك إلى الجماعات والأمم، فقد قص علينا القرآن الكريم من أخبار السابقين ما يصفهم بهذه الصفة، من هؤلاء:

## ١. قوم نوح عليه السلام.

أرسل الله تعالى نوحًا إلى قومه لينذرهم من قبل أن يأتيهم العذاب، فبلغ رسالة الله، ودعا قومه على كل حال؛ سرّا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، لكنهم استكبروا استكبارًا، وعتوا عن أمر ربهم، وعصوا رسول الله نوحًا عليه السلام، ومكث عليه السلام في دعوتهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِي دَعُوتُ فَرَى لِيَلا وَنَهَارُا اللَّهِ مَا لَكُ وَنَهَارُا اللَّهُ وَلَهَارُا اللَّهُ مَا يَذِهُمُ دُعَلَمُ اللَّهِ عَمَلُواْ أَسَلِيمَهُمْ فِي صَلَّما دَعَوتُهُمْ لِتَغْفِر لَهُمْ جَمَلُواْ أَسَلِيمَهُمْ فِي النَّائِمِ وَالسَّتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اللَّهَ عَمَلُوا وَاسْتَكْبَرُوا اللَّهَ عَمَلُوا اللَّهِ عَمَارُا اللَّهِ السَّمَكِبَارُوا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ السّلام وقتًا، ولم يدخو فلم يدخو جهدًا في دعوة قومه إلى الله، لكنهم استكبروا مصرين على استكبارهم.

ولما أمر الله تعالى نوحًا بصنع الفلك؛ لأن موعد هلاك القوم قد اقترب، فبدأ بصنعها في مكان لا ماء فيه، وكان قومه

يسخرون منه ويستهزئون به.

قال تعالى: ﴿ رَبَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلُما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَاً مِّن قَوْمِهِ مَسَخِدُوا مِنْهُ ﴾ [هود: ٣٨].

وكان استهزاؤهم هذا بنوح عليه السلام يكشف عن تكبرهم عليه وعلى دعوته.

٢. قوم هود عليه السلام.

دعا هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده ونبذ كل ما دونه من معبودات، وجاءهم بالبينة المصدقة له في دعواه، فاتهموه بالكذب والسفاهة، وقارعهم بالحجة، وذكرهم بحال من سبقهم ومصيرهم، لكنهم تمادوا في العتو والطغيان، فكذبوه وأنكروا عليه دعواه، وقالوا له: ﴿قَالُوا يَدْهُودُ مَا حِثَنَا بِبَيّنَةُ وَمَا نَحَنُ بِسَالِكَ وَالْهُ فِي الْعَوْدُ مَا حِثَنَا بِبَيّنَةً وَمَا نَحَنُ بِسَالِكَ وَالْهُ فِي الْعَوْدُ مَا حِثَنَا بِبَيّنَةً وَمَا نَحَنُ بِسَالِكَ وَالْهُ فِي الْعَدْدُ مَا حِثَنَا بِبَيّنَةً وَمَا نَحَنُ بِسَالِكَ وَالْهُ فِي الْهُ وَمَا نَحَنُ لَكَ وَمَا نَحَنُ لَكَ وَمَا نَحَنُ لَكَ إِلَهُ فِي الْهُ وَدِيهِ وَالْهُ وَمَا نَحَنُ لَكَ وَمَا نَحَنُ لَكَ الْهُ فِي الْهُ وَمَا فَعَنُ لَكَ الْهُ فَيْ الْهُ وَمَا نَحَنُ لِكَ وَمَا نَحَنُ لَكَ وَمَا نَحَنُ لَكَ وَمَا نَحَنُ لَكَ وَمَا فَعَنُ لَكَ الْهُ وَمِنْ اللّهِ وَمَا اللّهُ وَمَا فَعَنُ لَكَ الْهُ فَيْ اللّهُ وَمَا فَحَنُ لَكَ الْهُ وَاللّهُ وَمَا فَعَنْ لَكَ اللّهُ وَمَا فَعَنْ لَكَ اللّهُ وَمَا فَعَنْ لَكَ اللّهُ وَمَا فَعَنْ اللّهُ وَمَا اللّهُ وَمَا فَعَنْ لَكُ اللّهُ وَمَا عَنْ اللّهُ وَمَا عَنْ اللّهُ وَمَا اللّهُ اللّهُ وَمَا عَنْ اللّهُ وَاللّهُ وَمَا اللّهُ وَمَا اللّهُ اللّهُ وَمَا لَكُونُ اللّهُ وَمَا اللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَالْهُ اللّهُ وَمَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَالْهُ وَاللّهُ وَالْهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا لَا اللّهُ وَلَا لَا اللّهُ وَلَا لَا اللّهُ وَاللّهُ وَلّهُ اللّهُ وَلِكُونَا لَا اللّهُ وَلِهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا لَا لَاللّهُ وَلَا لَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلِهُ اللّهُ وَلِهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلِهُ اللّهُ وَلِهُ فَاللّهُ وَلّهُ اللّهُ وَلَا لَاللّهُ وَاللّهُ وَلّهُ اللّهُ وَلّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا لَاللّهُ وَلّهُ وَلِهُ وَلِهُ فَاللّهُ وَلِهُ وَلِلْهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلّهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلّهُ وَلِهُ وَلِهُ وَلِهُ فَاللّهُ وَلِهُ فَاللّهُ وَلِهُ وَلّهُ وَلّهُ وَلِهُ فَاللّهُ وَلِهُ فَاللّهُ وَلِه

وقالوا كذلك: ﴿أَحِقْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحُدَهُ، وَنَذَرَ مَاكَانَيَمْبُدُ مَابَآؤُنَا فَأَنِنَا بِمَا تَمِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّدِقِينَ ﴿ ﴾ [الأعراف:٧٠]. وقال تعالى مبينًا جحودهم: ﴿ وَتِلْكَ عَادًّ

وقال تعالى مبينا جحودهم: ﴿ وَتِلْكَ عَادُّ جَحَدُواً بِكَايَنتِرَتِهِمْ وَعَصَوْا رُسُلُهُ وَٱتَّبَعُواْ أَمْرَكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (۞﴾ [هود:٥٩].

لذا وصفهم الله تعالى بالاستكبار، وهم مستحقون لهذه الصفة، فقال جل شأنه: 

﴿ فَأَمَّا عَادُ فَأُسْتَكَبُرُوا فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِ ﴾
[فصلت: ١٥].

٣. قوم صالح عليه السلام.

تذكر الآيات الكريمة تمرد الملأ من قوم صالح عليه السلام، بعدما قدم لهم البينات، ودعاهم إلى عبادة الله وحده، وأصبح أمر رسالته واضحًا بلا مراء، غير أنهم أنكروا رسالته، وعتوا على أمر الله، وراحوا يصدون من آمن من قومه من المستضعفين عن دين الله، فقصت علينا الآيات هذا الكبرياء الذي كانوا عليه.

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَا اللَّهِ اللَّهُ ا

فكان صنيعهم هذا كبرياء وتعاظمًا على الحق، لذا سماهم الله بهذا الاسم الذي يلصق بهم صفة الاستكبار.

٤. قوم لوط عليه السلام.

وقد كان قوم لوط عليه السلام على معصية مخالفة لما عليه الأقوام السابقون بجانب بعض الكبائر، فبعث الله تعالى لهم نبيه لوطًا عليه السلام، فجاءهم مذكرًا لهم

بالله، وناصحًا ومرشدًا إلى ما فيه صلاح الحال في الدنيا والآخرة، وقال لهم بأنهم على فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين. قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ قَالَ عَلَى النَّاقُونَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَحَمُ مِنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَحَمُ اللَّهِ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللِّهُ اللَّهُ اللْحَالِمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّه

لكن قومه كانوا مفترين، فاستكبروا على أمر الله، وأصروا على المعصية.

وقد بدت علامات الكبرياء والتعاظم في ردهم على لوط عليه السلام لما دعاهم لترك الفاحشة.

قال الله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ٱنْتِنَا بِعَدَابِ ٱللّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّلْدِقِينَ ﴿ اللّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّلْدِقِينَ اللّهِ إِن كُنتَ مِنْ ٱللّهِ إِن كُنتَ مِنْ ٱلصَّلْدِقِينَ اللّهِ إِن اللّهِ إِن اللّهِ إِنْ اللّهِ إِنْ اللّهِ إِنْ اللّهِ إِنْ اللّهِ إِن اللّهِ إِنْ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّ

وقال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَكَالُواْ أَخْرِيُواْ عَالَ لُوطِ مِن قَرْمَةٍ عَلَى لُوطِ مِن قَرْمَةٍ كُمُ اللَّهُ اللَّهُ مَا أَنَاسٌ يَنْطَهَّدُونَ اللَّهُ اللَّهُ مَا أَنَاسٌ يَنْطَهَّدُونَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ مَا أَنَاسٌ يَنْطَهَّدُونَ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّالَّ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّا اللَّهُ اللَّا اللَّهُ الل

روى الطبري رحمه الله عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَّاسٌ يَنْطَهَّرُونَ ﴾ قال: من

أدبار الرجل وأدبار النساء؛ استهزاء بهم (١). أي: استهزاء بلوط عليه السلام والمؤمنين معه في تطهرهم عن هذه الرذيلة، وهذا يدل

معه في تطهرهم عن هده الرديله، وهذا يدل على تماديهم في الطغيان والاستكبار، حتى سخروا من الحق، وقلبوا الباطل حقًا والحق باطلًا.

وثم موقف آخر من مواقف عتوهم وتكبرهم: حينما جاء الضيف لسيدنا لوط عليه السلام وعلموا بقدومهم، فجاءوه مسرعين يريدون فعل الفاحشة مع ضيفه.

قال تعالى: ﴿ وَجَآءُهُ فَوْمُهُ يُهُوعُونَ إِلَيْهِ وَمِن مَّئُلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّعَاتِ ﴾ [هود: ٧٨]. وفي موضع آخر قال: ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَ عَنِي مُوضِع آخر قال! ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَ عَنِي مَنْ مَنْ الْمَالَقِ وَلَا تُعْفَرُونِ ﴿ قَالُواْ أَوَلَمُ نَفْضَحُونِ ﴿ فَالْقُواْ اللّهَ وَلَا تُعْفَرُونِ ﴿ قَالُواْ أَوَلَمُ نَفْضَحُونِ ﴿ قَالُواْ أَوْلَمُهُ مَنْ مَنْ فَيُعِلِينَ ﴿ فَالْقُوا اللّهَ وَلا تَعْفَرُونِ ﴿ قَالُواْ أَوْلَمُهُ كُنْتُو فَيْعِلِينَ ﴿ الْمُعْلِمِينَ ﴿ الصَحِرِ: ٢٧- ٧٩].

يقول الإمام الطبري رحمه الله: «وجاء أهل مدينة سدوم، وهم قوم لوط، لما سمعوا أن ضيفًا قد ضاف لوطًا مستبشرين بنزولهم مدينتهم، طمعًا منهم في ركوب الفاحشة»(۲).

إنها قمة الطغيان والاستكبار، أن يصل بهم الحال إلى هذا الحد؛ بأن يرتكبوا الفاحشة بضيف لوط عليه السلام ا إنهم قد

<sup>(</sup>١) جامع البيان، ١٩/ ٤٨١.

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق، ١١٧/١٧.

جعلوا نبيهم في موقف عصيب، حتى قال لهم ما قال.

٥. قوم شعيب عليه السلام.

أرسل الله تعالى شعيبًا إلى مدين وأمرهم بعبادة الله وحده، وحثهم على ترك كل ما من شأنه الفساد والإفساد، وبين لهم أمرًا شنيعًا ظهر فيهم، وهو التطفيف في الموازين.

قال تعالى مخبرًا عنه قوله لهم: ﴿ وَيَنَعَرْمِ الْوَهُولُ الْمِكَيَالُ وَالْمِيزَاتَ بِالْقِسْطِ ۗ وَلَا تَتَخُوا الْمِيرَاتَ بِالْقِسْطِ ۗ وَلَا تَتَخُوا فِ تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْبَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا فِ الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿ اللَّهِ يَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُقْمِينِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظِ إِن كُنتُم مِحْفِيظِ إِن كُنتُم مِحْفِيظِ إِن كَنتُم مُعْفِيظِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ ال

لكنهم قابلوا الإحسان بالإساءة، والنصيحة بالرفض، والتصديق بالتكذيب، وتمادوا في طغيانهم وكبريائهم، حتى قالوا -كما ذكر القرآن- في ردهم على شعيب عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَا ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنّك يَشْعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَك مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنّك يَشْعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَك مِن قَرْمِينَ أَوْ لَتُعُودُنّ فِي مِلَّتِ مَا قَالَ ٱوَلَوْ كُنّا كَرِهِينَ مِن قَرْمِينَ أَوْ لَتُعُودُنّ فِي مِلَّتِ مَا قَالَ ٱوَلَوْ كُنّا كَرِهِينَ مِن قَرْمِينَ أَوْ لَتُعُودُنّ فِي مِلَّتِ مَا قَالَ ٱوَلَوْ كُنّا كَرِهِينَ إِن مِلْتِ مَا قَالَ ٱوَلَوْ كُنّا كَرِهِينَ اللّهِ اللّهُ اللّهُ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ الللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهِ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهِ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ

فبردهم هذا الذي يحمل التهديد والوعيد لشعيب عليه السلام والذين آمنوا معه استحقوا وصفهم بالاستكبار.

ومن مواقفهم كذلك صدهم المؤمنين عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَلْكُأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن

قَوْمِهِ، لَهِنِ ٱتَّبَعْثُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُو إِذَا لَخَسِرُونَ (الأعراف: ٩٠].

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿ لَإِن النَّكُمُ لِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ (١).

ومن مواقفهم المجحفة في حق نبيهم التي تدل على تمردهم وتكبرهم على الهدى والطاعة لله ولرسوله: ﴿ قَالُوا يَسُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِنَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىكَ فِينَا ضَعِيفًا فَوَلَا رَهُطُكَ لَرَجَنَنَكُ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِمَزِيزِ وَلَوَلًا رَهُطُكَ لَرَجَنَنَكُ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِمَزِيزِ المِد: ٩١].

وانظر إلى موقفهم هذا الذي يصوره لنا القرآن الكريم:. ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْتَحْرِينَ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْتَحْرِينَ ﴿ مِثَلُنَا وَإِن نَظُنُكُ لَمِنَ الْمَسْعَرِينَ اللَّهِ مَثَلُنَا وَإِن نَظُنُكُ لَمِنَ الْمَسْعِط عَلَيْنَا كَلَيْنَا مَنْ الصَّالِقِينَ ﴿ فَا اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّالِي اللَّالِي اللَّهُ اللَّاللَّاللَّالِي اللَّهُ اللَّهُ اللَّلْمُا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ

فكل هذه صور ومواقف للتكذيب والاستكبار عن اتباع الحق، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، وقد ذكرها لنا القرآن الكريم لأخذ العبرة منها، ﴿ لَقَدْ كُلُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِلْأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف:١١١].

<sup>(</sup>١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٤٨.

## أساليب القرآن في عرض الاستكبار

جاء الحديث في القرآن الكريم عن الاستكبار على أساليب مختلفة ومتنوعة، منها:

## أولًا: الاستفهام الإنكاري.

رهب القرآن الكريم من الاستكبار ونفر منه بأسلوب الاستفهام الإنكاري التوبيخي، وهذان نموذجان ممن استكبروا بغير الحق، وأنكر عليهم القرآن استكبارهم ووبخهم عليه:

#### ١. إبليس.

خلق الله تعالى آدم بيديه، وشرفه بسجود الملائكة له، لكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين، فقال له الله تعالى منكرًا عليه فعله وموبخًا له: ﴿أَسْتَكُبُرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ فَعله وموبخًا له: ﴿أَسْتَكُبُرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ

أي: «استكبرت الآن أم كنت من قبل من العالين المتكبرين، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لإبليس»(۱). والمعنى: «تعظمت عن السجود لآدم، فتركت السجود له استكبارًا عليه، ولم تكن من المتكبرين العالين قبل ذلك ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْمَالِينَ ﴾ يقول: أم كنت كذلك من قبل ذا علو وتكبر على ربك»(۱).

فكما هو واضح في الآية الكريمة أن الله تعالى قد ذم الاستكبار بأسلوب الاستفهام، وهو أبلغ في الحجة، وأوقع في النفس مما لو كان بصيغية الخبر، ولذلك لم يكن مناص لإبليس للفرار من الإجابة عن السؤال، والإقرار بما في نفسه من حسد لآدم عليه السلام.

#### ٢. بنو إسرائيل.

ذم القرآن الكريم بني إسرائيل على ما وقع منهم من كبر، فذمهم الله تعالى أشد ذم بأبلغ أسلوب، فقال تعالى شأنه: ﴿ أَفَكُلُمَا جَآءَكُمُ رَسُولُ بِمَا لَا نَهُوكَ أَنفُسُكُمُ اسْتَكَكَرَبُمُ فَفَرِيقًا كَذَبتُمُ وَفَرِيقًا فَقُنُلُونَ ﴿ آلَا لِهُ وَفَرِيقًا اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ

"وبخهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنون بهمزة التوبيخ فقال: ﴿ أَفَكُلُمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ منكم ﴿ بِمَا لَا ﴾ يوافق ما تهوونه استكبرتم عن إجابته، احتقارًا للرسل، واستبعادًا للرسالة » (٣).

"والخطاب في ﴿ الله على الله على المبع عامًا لجميع بني إسرائيل، إذ كانوا على طبع واحد من سوء الأخلاق، وتكذيب الرسل، وكثرة سؤالهم لأنبيائهم، والشك والارتياب فيما أتوهم به، أو يكون عائدًا إلى أسلافهم الذين فعلوا ذلك، وسياق الآيات يدل عليه أو إلى من بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبنائهم، لأنهم راضون بفعلهم،

<sup>(</sup>١) أيسر التفاسير، الجزائري، ٤٦٢/٤.

<sup>(</sup>٢) جامع البيان، الطبري، ٢٦/ ٢٣٩.

<sup>(</sup>٣) فتح القدير، الشوكاني، ١٤٢/١.

والراضي كالفاعل. وقد كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، وسقوه السم ليقتلوه، وسحروه»(١).

فالآية الكريمة تنكر على بني إسرائيل تكبرهم على الحق واتباعهم الهوي، وذلك بأسلوب قوي رصين، جاء على سبيل الاستفهام، فإن هذا الأمر ما كان ينبغي أن يكون منهم، إنما الذي كان ينبغي هو التصديق برسل الله واتباعهم.

#### ثانيًا: تقبيح عاقبة المستكبرين.

نفرت الآيات الكريمة من الاستكبار بأسلوب آخر، ذلكم هو تقبيح عاقبة قررت الآيات هذه القضية في آيات عدة، كقوله تعالى: ﴿ فَلَيْشَنَّ مَثْوَى ٱلْمُتَكَّيِّرِينَ ﴾ [النحل:٢٩].

وقال ٱلْمُتَكِيِّينَ ﴾ [الزمر:٧٢، غافر:٧٦]. وقال كذلك: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى

فأخبر تعالى في فواصل هذه الآيات أن عاقبة هؤلاء المتكبرين مذمومة.

هذا، وقد توعد الله تعالى المستكبرين بسوء المصير، حيث أخبر تعالى شأنه أن عاقبة أمرهم خسرًا، وأن لهم العذاب الأليم

المستكبرين، وأن مثواهم بئيس مذموم، وقد

أيضًا: ﴿ فَيِئْسَ مُثُوَى لِّلْكَيْفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

فأما في الدنيا: فقد أخبرنا سبحانه وتعالى عن حالهم حين احتضار أحدهم كيف يكون من الهول والفظاعة؟!

فقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ تَرَيّ إِذِ ٱلظَّالِمُونَ فِي غَمَرَتِ ٱلمُوْتِ وَالْمَلْتَيِكُةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ أَلَيُومَ تُجَزِّونَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُم تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ عَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمَّ عَنْ ءَايكتِهِ مِتَمَّتَكُمْرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وأما في الآخرة: فقد أخبر جل جلاله من أحوالهم ما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، فقال تعالى شأنه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ أستنكفوا وأستكبروا فيعذبهت عذاسا أليسًا ﴾ [النساء:١٧٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِعَايَنْنِنَا وَأَسْتَكُبُرُوا عَنْهَا أَوْلَتِهِكَ أَصْحَنْتُ ٱلنَّارُّ هُمَّ فِيهَا خَلِدُونَ أَن اللهِ [الأعراف:٣٦].

وفي موضع آخر قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِيكَ كَذُّبُواْ بِتَايِنَيْنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا نُفَنَّتُمُ لَمُمْمَ أَبُوَبُ السَّمْلُو وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَقَّى يَلِيجَ ٱلْجُمَمُلُ فِي سَيِّهِ ٱلْحِيَاطِّ وَكَذَالِكَ بَحْزِىٱلْمُجْرِمِينَ اللهُ لَمْم مِن جَهَنَّمَ مِهَادُّ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشِ وَكَذَالِكَ نَجْزِى ٱلظُّلِلِمِينَ ﴿ الْأَعْرَافِ: ١-٤١-٤].

وبين سبحانه وتعالى أن سبب هذا العذاب هو ما هم عليه من الكبر.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كُفَرُواْ عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَنِيكُو فِي حَيَائِكُو ٱلدُّنِّيَا وَٱسْتَمْنَعَتُم بِهَا

في الدنيا والآخرة:

<sup>(</sup>١) البحر المحيط، أبو حيان، ١/ ٤٦٨.

فَالْيَوْمَ تُحْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْمِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَعِاكُنُمْ فَفَسُقُونَ ۞﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وبين الله تعالى أن الذين يستكبرون عن عبادته سبحانه ودعائه سيدخلون جهنم مذلولين صاغرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسَّتَكُمْرُونَ عَنْ عِبَادَقِ سَيَدَّخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿ اللهِ عَادَرِينَ اللهُ اللهُ اللهُ عَادَرِينَ اللهُ اللهُ

والوعيد بالعذاب هنا جاء على سبيل التهكم بهم، زيادة في التنكيل بهم، وإيقاع العذاب بهم جسديًا ونفسيًا.

فهذه آیات عدیدة تتوعد المستکبرین، وتبین سوء عاقبتهم، فکیف لعاقل أن یتکبر بعد هذا الوعید الشدید، والتفصیل المبین؟! ثالثًا: إبطال دعاوی المستکبرین.

هذا أسلوب آخر من أساليب القرآن الكريم المتنوعة في ذم الاستكبار والتنفير

منه، فقد جاءت آیات منه تجادل وتحاور وتناقش المتكبرين، وتقرر لهم أن ما هم

عليه من التكبر مزعوم لا حقيقة له، فهم أذلاء أمام عظمة الله، حقيرون إذا ما نظروا إلى أصل خلقتهم، ضعفاء مهما أوتوا من قوة، ولذلك نجد القرآن يذكر هؤلاء بأصلهم ومصيرهم تارة، ويبين لهم أنهم ضعفاء مفتقرون إلى خالقهم تارة أخرى، فانظر إلى مجادلة القرآن للمشركين الذين أنكروا بعث الأجساد بعد فنائها، كيف ذكرهم الله تعالى بأصل خلقتهم، ليدلل لهم أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم مرة أخرى، ورد على كبريائهم وتعاظمهم بأنهم خلقوا من ماء مهين.

فيا من تتكبرون على الله وتعتدون على كماله فتصفونه بالضعف، حين قلتم بعدم بعث الأجساد بعدما صارت ترابًا، انظروا من أين خلقتم ومن أي شيء كان خلقكم؟! وقال في موضع آخر للذي أعرض عن الذكر بعد إذ جاءه، فلا صدق ولا صلى، بل ذهب إلى أهله يتمطى، متبخترًا افتخارًا، مختالًا في مشيته متكبرًا، فقد ذمه الله تعالى، وأبطل تكبره برده إلى أصل خلقته، فقال:

وهذه عاد قوم هود عليه السلام قد اغتروا بقوتهم، واستكبروا في الأرض بغيًا وعدوًا، وقالوا: من أشد منا قوة؟! فرد الله عليهم ادعاءهم وأبطله، وبين لهم أنه سبحانه هو القوي وما دونه ضعيف، واستدل على ضعفهم بأنهم مربوبون لله مخلوقون له، وكيف لهم كمخلوقات لله أن يتكبروا عليه؟!

قال تعالى يحدثنا عن ذلك: ﴿ فَأَمَّا عَادُّ فَأُسْتَكُبُرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَةً أَوْلَمْ بَرَوًا أَنَ اللَّهَ ٱلذِّى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّهُمْ قُوَةً ﴾ [فصلت: ١٥].

إذن من خلال هذه النماذج المضروية يتبين لنا أن القرآن الكريم ذم الكبر ونفر منه بأسلوب الحوار والجدل، وهو أسلوب البليغ في تقرير مهمات الأمور، وإلجاء

## رابعًا: الثناء على المتواضعين.

فمدح الله سبحانه وتعالى الملائكة بهذا المدح، وكأن السياق تعريض بمن استكبر عن عبادة الله تعالى، فهو كالتعليل للسابق «على معنى: اثتوا بالعبادة على وجه الإخلاص كما أمرتم، فإن لم تأتوا بها كذلك فإنا مغنون عنكم وعن عبادتكم، إن لنا عبادًا مكرمين من شأنهم كذا وكذا» (۱) والاستكبار عن العبادة مناف للإخلاص، لذا لا تقبل عبادة المستكبرين، وقد وصفهم الله تعالى بالسجود له سبحانه؛ لما فيه من التذلل والتواضع، والبعد عن الكبرياء والتعاظم.

الخصم إلى الاعتراف والإذعان والتسليم، والرجوع إلى الحق.

<sup>(</sup>٢) روح المعاني، الألوسي، ٩/ ٢٢٤-٢٢٥.

<sup>(</sup>١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١٦٩.

وقد أثنى الله تعالى على القسيسين والرهبان الذين تواضعوا لعظمة الله فلم يستكبروا، فقال تعالى شأنه: ﴿وَلَتَجِـدَكَ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَرُونًا ذَالِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيسِين وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكُيرُونَ ﴾

أي: «﴿لا يَسْتَحَيِّرُونَ ﴾عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع مَيْنِ فِٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [لقمان:١٨]. والإقبال على العلم والعمل، والإعراض عن الشهوات؛ محمود وإن كانت من كافر »(۱). وفي المقابل فإن الله تعالى قد ذم المستكبرين، وقرر أنه لا يحب من كانت هذه صفته، فقال تعالى شأنه: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِينَ ﴾ [النحل: ٢٣].

وعدم محبته سبحانه للشيء يعنى أنه يبغضه ويكرهه، والكبر من الأمور التي يبغضها الله تعالى، ومن كان متكبرًا باء بسخط الله ووقع في بغضه، خلافًا لمن تواضع لعظمته سبحانه، فإنه يرجع بمحبة الله له ورضاه عنه.

فهذا الأسلوب في مدح المتواضعين، والثناء عليهم بنفي صفة الكبر عنهم، وبغض المستكبرين وعدم محبتهم -أسلوب من أساليب القرآن الكريم في التنفير من الكبر،

والحث على التزام خلق التواضع.

وتتمة لهذا الموضوع فإنه ينبغي الإشارة إلى أن هناك مواضع في القرآن الكريم جاءت بأساليب تؤدي في فحواها معنى الكبر، وتدعو إلى التواضع، وهذه بعضها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا نَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرِّحًا ۗ إِنَّكَ لَن تَغْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَنِ تَبْلُغُ لَلِمَالَ مُلُولًا 🐨 [الإسراء:٣٧].

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا

قوله تعالى: ﴿ فَلَا صَلَّكَ وَلَا صَلَّ اللَّ وَلَا كُلُّ اللَّ وَلَا كِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٠٠٠ أَثُمَ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ. يَتَمَعَّىٰ ١٠٠٠ ﴾ [القيامة: ٣١-٣٣].

ومعنى ذلك: (يتبختر ويختال في مشيته؛ افتخارًا بذلك»(۲).

ذكر تعالى مقالة قوم نوح عليه السلام له حينما وعظهم وأمرهم بعبادة الله وحده واتباعه، فقالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱنَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمَّ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ [هود:٢٧]. ولذلك رد عليهم بقوله عليه السلام: ﴿ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي آعَيُنكُمُ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾ [هود: ٣١].

قول المشركين في ازدراء النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَنَّخِذُونَكَ إِلَّا هُذُوا أَهَلَذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَيْسُولًا (1) [الفرقان:٤١].

<sup>(</sup>٢) فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٥ ٢٤.

<sup>(</sup>١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٢٧٩.

فهذه جملة من الأساليب تؤدي في فحواها أو تشترك مع معنى الاستكبار، والتعبير عن الشيء الواحد بألفاظ ومصطلحات مختلفة وأساليب متعددة يشعر بأهميته وخطورته، وأنه جدير بأن يذكر فلا ينسى، ولا شك أن الكبر من الكبائر في دين الله؛ إذ هي مما يبغضه الله ولا يرضاه، ويتوعد فاعله بالعذاب الشديد.

وهكذا تتنوع أساليب القرآن الكريم في ذم الكبر والتنفير منه، واختلاف الأساليب في تقرير القضية الواحدة فيه بلا شك دلالة واضحة على بلاغة القرآن الكريم وفصاحته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

## التخاصم بين المستضعفين والمستكبرين

إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار تبدأ المخاصمات بين الكافرين في جهنم، وتبدأ المعاتبة بين الضالين والمضلين، والسادة والرعية، والمستكبرين والمستضعفين، ويرجع بعضهم إلى بعض القول، كل يتهم الآخر في أنه كان سبب إضلاله وما هو فيه من العذاب.

وهناك ثلاثة مواقف عرضها القرآن الكريم من مواقف تخاصم أهل النار بين المستضعفين والمستكبرين:

الموقف الأول:

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَلَهُ تَعَالَى الله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّذِينَ اللَّهُ اللَّهُ وَلَا بِاللَّذِي اللَّهُ عَلَى اللَّهُ وَلَا بِاللَّذِي اللَّهُ اللَّهُ وَكَ اللَّهُ وَكَ عَنْدَ وَلَا بِاللَّذِينَ اللَّهُ وَكَ عَنْدُ اللَّذِينَ اللَّهُ وَلَى يَعْوَلُ اللَّذِينَ السّتَكَارُوا لَوْلَا اللَّذِينَ السّتَكَارُوا لَوْلَا اللَّذِينَ السّتَكَارُوا لَوْلَا اللَّذِينَ السّتُحْبُوا اللَّذِينَ السّتُحْبُوا اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللّهُ الللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّه

في هذه الآيات «يخبر تعالى عن تمادي

الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد؛ ولهذا قال: ﴿ وَقَالَ اللَّذِينَ كَفَرُوا لَى نُؤْمِنَ بِهَاذَا الْقُرْمَ إِن وَلَا بِاللَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

قال الله تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا، ومخبرًا عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: ﴿رَجُّعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَـقُولُ ٱلَّذِيكَ آستُضْعِفُواً ﴾ منهم وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم قادتهم وسادتهم: ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي: لولا أنتم تصدونا، لكنَّا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به. فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا: ﴿ أَغَنُّ صَدَدْنَكُمْ عَنِ ٱلْمُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ ﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿ بَلْ كُنتُم تُجْرِمِينَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكَّبَرُوا بَلَ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلًا ونهارًا، وتغرونا وتمنونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذبٌ ومين<sup>ه(١)</sup>. ً

ولا شك أن هذا العتاب لن يجدي ولن ينفع أو يغني عن صاحبه من الله شيتًا، وقد

(۱) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٩/٦.

يسر الله لهم سبيل الإيمان والعمل، ولكنهم كفروا وكذبوا، ثم جاءوا ليتخاصموا في جهنم ويلقي بعضهم اللوم على الآخر في أنه كان سببًا في إضلاله، فيندمون جميعًا حيث لا ينفع الندم.

الموقف الثاني:

قال الله تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ بِلَهِ جَمِيعًا فَقَالَ الشَّهُ عَنَكُمُ اللّهِ عَالَى: ﴿ وَبَرَزُواْ بِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الشُّهُ عَنَكُمْ اللّهِ عَنَا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءً فَهَلَ أَنتُم مُعْنُونَ عَنَا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءً فَهَلَ اللّهُ لَمَدَيْنَ حَمُّمٌ سَوَاءً عَلَيْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَذَيْنَ حَمُّمٌ سَوَاءً عَلَيْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَذَيْنَ حَمُّمٌ سَوَاءً عَلَيْ اللّهُ اللّهُو

«في هذه الآية عرض سريع للموقف وما بعده من استقرار أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة، يقرر مبدأ الوحي والتوحيد والبعث الآخر بأدلة لا ترد.

لَمُدَيْنَكُمْ اعترفوا الآن أن الهداية بيد الله وأقروا بذلك، ولكنا ضللنا فأضللناكم الله وأمّ صَبَرَنَا الله وأمّ صَبَرَنَا مَالَنَا مِن مَجْرَنَا مَالَنَا مِن مَجْرِهِ من هذا العذاب ولا مهرب (١٠).

ففي هذا الموقف نرى صورة الضعفاء مع القادة الذين استكبروا وكانوا لهم تبعًا في الدنيا، فتصور لنا الآية موقف الضعفاء وهم يستجدون الرؤساء والقادة في أن يحملوا عنهم من عذاب الله أي شيء مهما قل، ولكن هيهات هيهات، لكل امرئ منهم يومئل شأن يغنيه، وعنده من العذاب ما يكفيه، كل واحد منهم يريد أن يدفع العذاب عن نفسه، فكيف يأخذ من عذاب غيره؟! ولذلك فإن الضعفاء يطلبون المستحيل، فيرد عليهم القادة والمستكبرون بأن الله فيرد عليهم القادة والمستكبرون بأن الله تعالى لو وفقنا إلى الإيمان به وبرسالاته لدللناكم إليه، ولكن قدر الله سبق علينا أننا كافرون، فلا مفر لنا من عذاب الله سواء أجزعنا أم صبرنا.

الموقف الثالث:

موقف المحاجة بين الضعفاء والمستكبرين من قوم فرعون.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَنَحَاّجُونَ فِي النّادِ فَيَقُولُ الشُّعَفَّتُواْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبُرُواْ إِنّا كُنَّالكُمْ تَبَعًا فَهَلَ أَنتُد مُّغْنُونَ عَنَّا نَضِيبًا

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٣/ ٥٢،٥٣ .

مِّنَ النَّادِ ﴿ قَالَ الَّذِينَ السَّتَحَبُّواً إِنَّ اللَّهُ قَدْ حَكُمَ بَيْنَ الْعِبَادِ إِنَّ اللَّهُ قَدْ حَكُمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (اللهُ عَلَى اللهُ عَدْ حَكُمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (۱۵-۱۹).

«الظاهر أن الضمير عائد على فرعون، وقال ابن عطية: والضمير في قوله:

هذا الموقف يشبه سابقه، حيث وقعت المحاجة بين المستكبرين والمستضعفين من الكفرة، وقد وقعت بينهم بينما هم في نار جهنم يعذبون. الضعفاء كعادتهم هم الذين يبدأون الحوار والمجادلة؛ لأنهم يعتقدون أن القادة المستكبرين غلبوهم في الأخرة كما غلبوهم في الدنيا، فقد غلبهم الملأ المستكبرون في الدنيا بما أغروهم به من وعودات كاذبة؛ كقولهم لهم: ﴿ الْعَنْكُمُ مُ العَنْكِوتَ الْعَنْكِوتَ الْعَنْكِوتَ الْعَنْكِوتَ الْعَنْكِوتَ الْعَنْكِوتَ الْعَنْكِوتَ الْعَنْكُوتُ الْعَنْكِوتَ الْعَنْكِوتَ الْعَنْكُوتُ الْعَنْكِوتَ الْعَنْكُوتُ الْعَلْكُمُ الْعَنْكُوتُ الْعُنْكُوتُ الْعَنْكُوتُ الْعَنْكُوتُ الْعَنْكُوتُ الْعَنْكُوتُ الْعَنْكُوتُ الْعَنْكُوتُ الْعُنْكُوتُ الْعُنْكُوتُ الْعُنْكُوتُ الْعُنْكُوتُ الْعُنْكُوتُ الْعُنْكُوتُ الْعُنْعُوتُ الْعُنْكُوتُ الْعُنْكُوتُ الْعُنْكُوتُ الْعُنْكُوتُ الْعُنْكُوتُ الْعُنْكُوت

فأطاعوهم واتبعوهم على الباطل، وغلبهم المستكبرون في الآخرة بأن كانوا سببًا في دخولهم النار، ولذلك يبدأون المحاجة متوسلين لهم بما وقع في الدنيا وتكلفوننا فننفذ ما تريدون، ولا نعصي لكم أمرًا وفهكل أنشُم مُغنون عناً نصيبًا مِن النار كما كنتم تعدوننا في الدنيا بحمل أوزارنا وخطايانا؟! فاحملوا عنا ولو جزءًا يسيرًا من العذاب،فرد عليهم المستكبرون

<sup>(</sup>٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٧/ ٤٤٨.

### عاقبة المستكبرين

قضى الله تعالى أن العاقبة للمتقين، والهلاك والخسران على الكافرين والمتكبرين والمجبرين، وأثبت الواقع هذه الحقيقة، ودلت الشواهد التاريخية على هذه السنة الإلهيةالجارية في هذا الكون، والقرآن حوى العديد من هذه الشواهد، وقد سبق الكلام عن استكبار بعض الأمم والأفراد في المبحث الخامس من هذا البحث، وتبينت لنا مواقف المستكبرين من الدعوات، وهاهنا نبين مشهد النهاية لهم في الدنيا والآخرة، وهذه بعض المشاهد أذكرها على سبيل المثال:

# أولًا: هلاك المستكبرين من قوم نوح عليه السلام:

أخبرنا الله تعالى عن نوح عليه السلام وقومه؛ حيث أرسله لينذر قومه من قبل أن يأتهم عذاب الله، فأمرهم أن يعبدوا الله ويتقوه، ويطيعوه عليه السلام فيما يبين لهم من شرائع الأحكام وسنن الهدى، ولم يدع عليه السلام وقتًا من الأوقات إلا ودعاهم فيه إلى الله؛ ليلا ونهارًا، سرًا وجهارًا، لكن قومه أبوا وأصروا على كفرهم وعنادهم واستكبروًا استكبارًا، كما أخبرنا عن ذلك القرآن الكريم، فقال تعالى شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِي مَوَتُ قَرْمِي لِيَلا وَنَهَارًا وَ فَالَى قَالَ مَعَالَى شَانَه:

## ﴿إِنَّا كُلُّ فِيهَا إِنَ اللَّهَ قَدْ حَكُمْ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ

فلن يفيد تحملنا نصيبًا من عذابكم شيئًا؛ لأننا كلٌ في النار معذبون، وقد قضى الله تعالى وفصل بين العباد؛ أهل الجنة في الجنة ينعمون، وأهل النار في النار يعذبون. إذن، هذه ثلاثة نماذج ضربها لنا القرآن لنأخذ منها العبرة والعظة، وهي متضمنة لحوار ومخاصمة وقعت بين المستضعفين والمستكبرين في نار جهنم، وكيف يلقي بعضهم اللوم على بعض، ويتوسل الضعفاء إلى الأكابر والرؤساء بأن يحملوا شيئًا من خطاياهم ولو قل، لكن دون جدوى، فنسأل خطاياهم ولو قل، لكن دون جدوى، فنسأل الله تعالى السلامة.

يَزِدْهُوْ دُعَلَوْنَ إِلَا فِزَارًا الْ وَإِنَّ حَلَمًا دَعُوثُهُمْ الْمُعْفَرُ لَهُمْ دُعَلَوْنَهُمْ فَلَا أَصَلِعَهُمْ فِي مَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاً فِي الْمَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاً فَيَابَهُمْ وَأَصَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا السَّيْكَبَارًا اللهُ ثُمَّ إِنِي الْمَلْتُ لَمُمْ وَأَسْرَرْتُ لَمُمْ وَالْمَرَرَتُ لَمُمْ إِنِي أَعْلَنتُ لَمُمْ وَأَسْرَرْتُ لَمُمْ إِنِ أَعْلَنتُ لَمُمْ وَأَسْرَرْتُ لَمُمْ إِنِ أَعْلَنتُ لَمُمْ وَأَسْرَرْتُ لَمُمْ إِنِ الْعَلنتُ لَمُمْ وَأَسْرَرْتُ لَمُمْ إِنِ الْعَلنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَمُمْ إِنِي الْعَلنتُ لَمُمْ وَأَسْرَرْتُ لَمُمْ اللهُ اللّهُ اللهُ ا

فهل بعد هذا الكبرياء كبرياء؟! وهل هناك تمرد وعتو عن الطاعة بعد هذا التمرد والعتو؟! لقد مكث نوح عليه السلام يدعو قومه مئات السنين، فما آمن معه إلا قليل، ولذلك عاجلتهم عقوبة الله، ونزل بهم عذابه ونقمته.

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَجَيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ، فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَنَّبُولُ بِثَايَنِيْنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فَوَمَّا عَمِينَ ﴿ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللهِ عَلَيْهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللّهُ اللَّهُ اللّ

هذا عذاب الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد إخزى.

قَالَ تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيْكَ نِهِمْ أُغَرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَازًا فَلَرْ يَجِدُوا لَهُمْ مِن دُونِ اللهِ أَنصَارًا ﴿ اللهِ اللهِ أَنصَارًا ﴿ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ الهَالِمُ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهِ المُلْمُ اللهِ المُلْمُ اللهِ اللهُ المُلهِ اللهِ المُلْمُ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ المُلْمُلِي المُلْمُ ال

قال الإمام السمرقندي: ﴿ ﴿ مِمَّا خَطِيٓ عَنِمُ اللهِ اللهِ الْمُواَ الْمُواَ اللهِ اللهِ اللهِ الْمُواَ الْمُؤْوَا اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُولِيَّا اللهُ الل

فنالوا بكفرهم واستكبارهم عن الحق عذابي الدنيا والآخرة؛ فعذبهم الله تعالى بالغرق في الدنيا، وسيعذبون يوم القيامة في جهنم، هذا مصيرهم لكفرهم واستكبارهم.

أرسل الله تعالى إلى ثمود نبيه صالح عليه السلام، مبلغًا ومرشدًا ونذيرًا، فأما الملأ المستكبرون من قومه فقد كان موقفهم من الدعوة موقف عداء ومعاندة، فعتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَبِّرُوّاً إِنَّا بِاللَّذِيّ ءَامَنتُم بِهِ كَغِرُونَ ۞ فَعَقَرُواً النَّافَةُ وَعَنتُوا عَنْ آمْ ِ رَبِّهِمَ وَقَالُواْ يَصَلَالِحُ ٱلْقِنْنَا بِمَا تَعِدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَكُ فَأَصْبَحُواْ فِ دَارِهِمْ جَنشِينَ ۞ فَنَوَلَى عَنهُمْ وَقَالَ يَنقُومِ لَقَدْ دَارِهِمْ جَنشِينَ ۞ فَنَوَلَى عَنهُمْ وَقَالَ يَنقُومِ لَقَدْ أَبْلُغْتُكُمْ وَلَلْكِنَ لَآ فَيُجُونُ النَّصِحِينَ ۞ فَالَا وَنصَحْتُ لَكُمْ وَلَلْكِنَ لَآ

فأخبر الله تعالى أنه أنزل عليهم عذابه بسبب استكبارهم وعنادهم وعتوهم، فأخذهم بالصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، «وأخذ الرجفة: إهلاكها إياهم وإحاطتها بهم إحاطة الآخذ. ولا شك أن الله نجى صالحًا عليه السلام والذين آمنوا معه... والجاثم: المكب على صدره في الأرض مع قبض ساقيه كما يجثو الأرنب... والمعنى أنهم أصبحوا جثثا هامدة ميتة على أبشع منظر لميت»(٢).

ثانيًا: هلاك المستكبرين من قوم صالح عليه السلام:

<sup>(</sup>۲) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ۸/۲۲۷.

<sup>(</sup>۱) تفسير السمرقندي، ٣/ ٤٠٨.

## ثالثًا: هلاك المستكبرين من قوم هود عليه السلام:

بعث الله تعالى هودًا إلى قومه ليبلغهم رسالته ويعلمهم أمور دينهم، وجاءهم بآية بينة، فآمن معه فريق من قومه وكفر آخرون، فأما الكافرون فقد استكبروا في الأرض بغير الحق، وعتوا عن أمر ربهم وعصوا رسوله، وغرتهم قوتهم فلم تغن عنهم من الله شيئًا، فكان استكبارهم ورفضهم دعوة الله سببًا في نزول عذاب الله عز وجل عليهم في الدنيا، وخلودهم في نار جهنم في الآخرة. وقد أخبرنا الله تعالى عن حالهم عند رفضهم دين الله وتكذيب رسله.

فأخبر تعالى أنه أنزل بهم عذابه في الدنيا بسبب استكبارهم في الأرض بغير الحق، فأرسل عليهم ريحًا صرصرًا تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر، إذلالًا لهم وإلحاق الخزي بهم في الدنيا، فلم تنفعهم قوتهم التي قد اغتروا بها، ولعذاب الآخرة أشد إيلامًا وأخزى.

## رابعًا: هلاك المستكبرين من قوم شعيب عليه السلام:

قوم شعيب عليه السلام هم أهل مدين الذي أرسل إليهم مبلغًا ومرشدًا، لكن المستكبرين من قومه رفضوا دعوة الله، واستكبروا عن عبادته والخضوع لأمره، وهموا بإخراج رسولهم والذين آمنوا معه بغيًا وعدوًا، واستهزأوا به وسخروا منه، ثم بالغوا في العناد والاستكبار فطلبوا منه أن يسقط عليهم كسفًا من السماء إن كان صادقًا في ادعائه الرسالة، فقالوا كما أخبر من قويد لنُخْرِجنك يَشُيّبُ وَالّذِينَ اَسْتَكْبُولُا مِن قَوْمِدِ لَنُخْرِجنك يَشُمّبُ وَالّذِينَ اَسْتَكْبُولُا مِن قَرِيدًا أَوْ لَتَعُودُن فِي مِلْتِمناً قَالَ أَوْلُو كُنّا كُرِهِينَ مِن قَرِيدًا أَوْ لَتَعُودُن فِي مِلْتِمناً قَالَ أَوْلُو كُنّا كُرِهِينَ مِن قَرِيدًا أَوْ لَتَعُودُن فِي مِلْتِمناً قَالَ أَوْلُو كُنّا كُرِهِينَ مِن قَرِيدًا أَوْ لَتَعُودُن فِي مِلْتِمناً قَالَ أَوْلُو كُنّا كُرِهِينَ مِن قَرِيدًا أَوْ لَتَعُودُن فِي مِلْتِمناً قَالَ أَوْلُو كُنّا كُرِهِينَ

وقال في موضع آخر: ﴿أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ مَابَآؤُنَاۤ أَوْ أَن نَفْعَلَ فِي أَمْوَلِنَا مَانَشَتُوُّ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿ أَمُولِنَا مَانَشَتُوُّ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿ آَمُولِنَا مَانَشَتَوُّ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ

قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، وقال

أيضًا عنهم: ﴿ فَأَسَقِطُ عَلَيْنَا كِسَفَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّندِقِينَ ﴿ الشَّعراء: ١٨٧]. وهذا يدل على شدة كفرهم وعنادهم وعتوهم، لذا استحقوا عذاب الله تعالى، فأنزل عليهم سخطه وعذابه، فأصبحوا جثثًا هامدة بلا حراك، ونجى الله نبيه والذين آمنوا معه. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمُرُنَا جَيَنَنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ مَامَنُوا مَعَدُهُ بِرَحْمَةِ مِنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ طَلَعُوا أَنْ وَيَنْدِهِمْ جَيْدِينَ طَلَعُوا أَنْ دِينَدِهِمْ جَيْدِينَ طَلَعُوا أَنْ دِينَدِهِمْ جَيْدِينَ اللَّهُ وَلَيْدِينَ اللَّهُ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِينَدِهِمْ جَيْدِينِ اللَّهُ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِينَدِهِمْ جَيْدِينِ اللَّهُ اللَّاللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّالَ

وقال أيضًا: ﴿ فَكُذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَةُ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ السَّابُ الشَّابُ السَّابُ الشَّابُ الشَّابُ الشَّابُ الشَّابُ الشَّابُ السَّابُ الشَّابُ السَّابُ الشَّابُ السَّابُ السَابُ السَّابُ الْعَالِمُ السَّابُ الْعَالِمُ السَّابُ السَّابُ السَّابُ السَّابُ السَّابُ السَّابُ الْعَالُمُ الْعَالِمُ السَّابُولُ الْعَلَالُمُ الْعَلَالُمُ الْعَا

قال ابن كثير: ﴿ فَكُذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ وَهِمْ الْفُلَةَ الْمُدُكُانُ عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من جنس ما سألوا، من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله، سبحانه وتعالى، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جدًا مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررًا من نار، ولهبًا ووهجًا عظيمًا، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥكَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١).

فهذا مصير كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، فيهلكهم في الدنيا، ويعذبهم في الانجرة، وأما المؤمنون وأتباع الرسل عليهم السلام فينجيهم الله من عذاب الدنيا والآخرة، وهذه سنة الله في الكون، لا محيد عنها ولا محيص، تقررت في قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّلِاحَاتِ فَيُوْفِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِن فَضَالِةٍ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱلسَّتَنكَفُوا وَٱسْتَكْبُرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (اللهِ) [النساء: ١٧٣].

وتقررت هذه السنة الإلهية في قوله تعالى كذلك: ﴿ هَاذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِٱلْحَقِّ الْمَالُونَ ﴿ فَا اللّهِ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّه

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِيثَ كَذَّ بُوا إِيَّا اللَّهِ وَلا يَدْخُلُونَ وَالسَّمَكَةِ وَالا يَدْخُلُونَ السَّمَلَةِ وَلا يَدْخُلُونَ السَّمَلَةِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَقَّى يَلِجَ الجُمْمَلُ فِي سَيِّر الْحَيْلَةِ وَكَذَلِكَ خَيْرِي الشَّمْلِةِ وَكَذَلِكَ خَيْرِي الشَّلِلِينِ اللَّهُ وَمِن فَقَيْمِ مَنْ اللَّهِ عَلَى الشَّلِلِينِ اللَّهُ وَمِن وَاللَّذِينَ مَا مَنُوا وَعَكِمُ وَالسَّمَالِ حَدِي الظَّلِلِينِ اللَّهُ وَمِن وَاللَّذِينَ مَا مَنُوا وَعَكِمُ وَالسَّمَالِ حَدِي اللَّهُ وَمِن فَيْهَا وَعَكِمُ وَالسَّمَا إِلَّا وُسَعَهَا أُولَتَهِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا فَعَلَادُونَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْعَرافِ الْعَلَادُونَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْعَلَادُونَ اللَّهُ اللَّهُ الْعَرافِ وَالْعَلَادُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللْهُ اللَّهُ اللْعُلِمُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُنْ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ ا

فالعاقبة للمتقين، إنها سنة الله الحتمية، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تحويلًا.

<sup>(</sup>۱) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٦٠-١٦١.

### علاج القرآن للكبر

أيقنا بأن الكبر مرض عضال من أمراض القلوب، تظهر أعراضه على المتكبر في الدنيا والآخرة، لذا لا بد له من علاج كي يستقيم حاله وينصلح أمره، ولن تجد له وصفة علاج أمثل ولا أفضل من علاج القرآن والسنة؛ لأن الله أعلم بخلقه من أنفسهم،

وهذه بعض علاجات القرآن لمرض الكه:

## أولًا: معرفة الله:

إن الله له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وله الشرف الأتم الأسنى، تقدست أسماؤه، وعظمت صفاته، هو واحد أحد، فرد صمد، لا يشبهه شيء، ولم يكن له كفوًا أحد.

وإن من أسمائه جل في علاه (الخالق)، خلق الخلق عظيمه وحقيره، كبيره وصغيره، دقيقه وجليله، بنظام محكم متقن بديع، لا يسع الإنسان معه إلا أن يقف أمام هذه العظمة قائلًا: جلت عظمة الخالق، لا إله غيره ولا رب سواه، ثم يخر له ساجدًا خاضعًا ذليلًا.

إن المتكبر إذا علم صفات الله عرف حجمه ومكانته وموقعه، وأين هو في هذا الكون؟! وماذا يشكل فيه؟! فينقطع حينتلِـ

عن كبريائه وتعاظمه، ويخضع فقط لعظمة الله، ويذل لجبروته وكبريائه سبحانه، ويأبى أن يكون أحدُّ عليه كبيرًا على أحد أو أن يكون أحدُّ عليه كبير غير الله.

ثم إن من علمه بربه يقتضي أن لا يسيء الظن به، لأن إساءة الظن به جل جلاله تورد المهالك، وتسبب الخسران المبين.

إن عادًا لما استكبروا في الأرض بغير الحق واغتروا بقوتهم، ذكرهم الله تعالى ببديع صنعه وعظيم خلقه، وكمال قوته؛ ليرجعوا عن عتوهم وكبريائهم، ويذلوا لعظمته وكبريائه سبحانه.

فهذه أول وأهم خطوة على سبيل علاج مرض التكبر؛ أن يتعرف العبد على الله تعالى.

#### ثانيًا: معرفة المتكبر لحقيقته ومصيره:

لا بد للمتكبر أن يلعم بأنه مخلوق من مخلوقات الله جل جلاله، خلقه من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين حقير،

كما ذكره كذلك بأصل خلقته لما ضرب هذا المتكبر مثلًا، حين قال: من يحيي العظام بعد أن تصبح رميمًا.

قال جل جلاله :. ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِى خَلْقَةٌ قَالَ مَن يُحِي الْمِظَامَ وَهِى رَمِيكُ ﴿ اللَّهُ قُلْ يُحْمِيمُ اللَّهِ اللَّهِ عَلْقِ مُحْمِيمًا اللَّذِي أَنشَأَهَا أَوْلَ مَرَقٌ وَهُوَ بِكُلِ خَلْقٍ عَلِيكُ لِ خَلْقٍ عَلِيكُ اللَّهُ [ يس: ٧٨-٧٩].

إن الله تعالى كما ذكر المتكبرين بمنشأهم ذكرهم كذلك بمآلهم، فبين لهم أنهم بعد هذه الحياة يموتون، وأنهم إلى التراب يصيرون، وفيه يعودون، فقهرهم بالموت، وكفى بالموت واعظًا.

قال تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِيهَا تَمُوتُونَ وَمِينَهَا تُخْرَجُونَ ﴿ وَالْأَعْرَافَ ٢٥].

لذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَا نَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

ولم يقل: (ولا تمش مرحًا)؛ يذكر تعالى الإنسان شأنه بأصله الذي منه خلق وفيه يعود، وهو الأرض، فإذا تكبر فعلام يتكبر؟! أيتكبر على أصله الذي منه جاء وفيه يعود؟!

إن المتكبر إذا عرف هذه المعاني وأيقن بهذه الحقائق فلن يتكبر، ولن يتعاظم على الناس.

## ثالثًا: الوعيد الشديد للمتكبرين:

إضافة إلى ما سبق فإن الله تعالى أعد للمتكبرين عذابًا شديدًا، فقال جل جلاله: ﴿ اللَّهُ مَنْوَى لِلنَّكَكَبِينَ اللَّهُ اللهُ ا

وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)(1).

وقد سبق حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار)(٢٠).

وقد رأينا في هذا البحث كيف كان مصير المستكبرين في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى، فليس بعد هذا الوعيد من وعيد، والعاقل من استفاد من تجارب السابقين.

<sup>(</sup>۱) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩١، عن عبدالله ابن مسعود.

أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وصححه الشيخ الألباني.

## حضالالف

فهذه ثلاث طرق لعلاج الكبر مستوحاة من كتاب الله تعالى وسنة حبيبه صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن المتكبر حال تلبسه بكبريائه يغيب عن باله عظمة الخالق سبحانه، وينسى أصله وحقيقته ومآله، ويتجاهل ما ينتظره من العذاب الشديد، ولو استحضر هذه أمامه لما تكبر على خلق الله، ولا تعالى على عباده.

## موضوعات ذات صلة:

التواضع، الذل، العجب، الغرور